القس دينوار

فن الصمت

ترجمة: د. قاسم مقداد

دراسات فكرية

دار التنوير
للدراسات والنشر والتوزيع

فن الصمت

عنوان الكتـــاب: فن الصمت

اســـم المؤلـــف: القس دينوار

اســـم المترجـــم: د. قاسم مقداد

المـوضـــــــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 72 ص

القيـــــــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ

ISBN: 978-9933-38-107-3

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتـــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل او اقتباس، او ترجمة، اي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

القس دينوار

فن الصمت

ترجمة

د. قاسم مقداد

منشورات Editions Jérom Million - 2011 - Grenoble

وهي الطبعة السادسة منذ عام ١٩٩٦

المحتويات

تقديم ٧

فن الصمت: تمهيد ٢٧

القسم الأول: مقدمة ٢٩

الفصل الأول: المبادئ اللازمة لالتزام الصمت ٣١

الفصل الثاني: الأنواع المختلفة للصمت ٣٣

الفصل الثالث: أسباب الاختلاف في أنواع الصمت ٣٧

القسم الثاني: مقدمة ٣٩

الفصل الأول: سوء الكتابة ٤١

الفصل الثاني: الإفراط في الكتابة ٤٣

الفصل الثالث: نحن مُقلّون جداً في الكتابة ٥٩

الفصل الرابع: مبادئ ضرورية للتعبير بالمقالات أو بالكتب ٦١

تقديم

جان جاك كورتين
كلودين هاروش

بعد أن قدم الأب ب. لامي B.Lamy كتابه "في فن الكلام" إلى الكاردينال لو كامي Le Camus، سأله من باب إزجاء الشكر: "لا شك أنه فن رائع، لكن هل ثمة من يقدم إلينا كتاباً في "فن الصمت"؟".

هنا بدأت تختمر في رأس القس دينوار، فكرة نشر كتاب يحمل عنوان "فن الصمت، لا سيما في ميدان الدين"[1]، كما يقول أحد كتاب سيرته

---

١ - في عام ١٧٧١، نشر جوزيف أنطوان توسان دينوار كتابه: فن الصمت، وبشكل رئيس في موضوع الدين.

ولد القس دينوار في مدينة أميان Amiens في عام ١٧١٦، وأصبح جزءاً من تلك الطبقة الدينية الدنيوية، التي كتبت في القرن الثامن عشر في مختلف الموضوعات، لا سيما حول النساء: وكلنا يعرف مقدار الشغف بهذا الموضوع إبان القرن الثامن عشر. في عام ١٧٤٩ نشر دينوار كراساً "مغفل الاسم" بعنوان "انتصار الجنس"، وهو ما سبب له المشاكل مع مطران أميان.

وقد أخذ اللاحقون عن دينوار عدة ترجمات سريعة عن اللغة اللاتينية، وإعادة طبع عدة كتب معروفة حرفياً تقريباً لكتاب آخرين، وينقل أحد كتاب سيرته المدعو كامو Camus أن ترجمات القس ساباتييه دو كاستر Sabatier de Caster "أقل سوءاً من كتبه، لأنه غير مسؤول عن مضمونها"، أحد قساوسة أميان القائلين بحقوق المرأة في القرن الثامن عشر هو القس دينوار (١٧١٦ - ١٧٨٦) مؤلف كتاب: "انتصار الجنس" في مجلة Bulletin de la Société des Antiquaires de Picardie, Vol. 39, 1942, p.262

الذاتية. لكن هل أراد الأب دينوار أن يكتب دراسةً لتكون فناً لعدم قول أي شيء؟ أو فناً لعدم فعل أي شيء؟ وهل أراد أن يختتم، في كتاب فن الصمت، سلسلة طويلة من فنون التكلم، التي كانت مَعْلَماً من معالم البلاغة السائدة في العصر الكلاسيكي؟ أم قصدَ وضعَ حدٍّ لفكرة البلاغة نفسها؟ ليس هذا على الإطلاق ما أراده، لأنَّ فن الصمت، في حقيقته، هو فن التكلّم، أي أنه فصل آخر من فصول البلاغة.

أولاً، نظراً للموقف المفارق لمن قال به، كان مضطراً لإملاء قواعده ومخالفتها، لأنه ليس للغة ما هو خارج عنها، ولا للبلاغة ضدها. كما لا ينبغي أن نتوقع من دينوار درساً في التصوف، ودعوة للعيش في عالم محكوم بالصمت، أو إلى وضع ما لا يوصفُ في لغة أساسية.

دينوار ليس إنساناً متأملاً، بل منخرطاً في العالم، إضافة إلى كونه رجل مناظرة. ليس فن الصمت دراسة في الخشوع أو الوجد: ولا يهدف الدفع إلى الصمت أمام الله، ولا يسعى إلى التعبير عن الصمت الأول يوم كان الله والناس شيئاً واحداً بلغةٍ روحانية. فهو لا يفتقر إلى أيّ من الغايات البلاغية على الإطلاق: إنه ليس فناً لفرض الصمت، بل تقديم شيء للآخر من خلال الصمت.

ويؤكد كتاب سيرته على كونه أكثر من مؤلف، إذ يجب عده ناشراً، وهو أمر ليس استثنائياً في تلك الفترة، والأخطر من هذا بوصفه متحلاً، لذلك أطلق عليه بعد نشر كتابه "فن الصمت" لقب "زعيم المتحلين". (لمزيد من التفاصيل الخاصة بسيرته الذاتية نحيل القارئ إلى:

Abbé Daire, histoire littéraire de la ville d'Amiens ,Paris 1782,p.347-359

الفأرة التي تهرب منك، قد تبعث الجنون أيضاً في نفوس المجرمين الهاربين، لظنهم بأنهم يرقّحون عنك، وينالونَ إعجابك. عندها، على وجهك أن يتكلم بدلاً من لسانك. فصمتُ الحكيم مُعتبر، وهو أمثولة للمتهورين، وعقاب للمذنبين[1].

الوجهُ يتكلم عوضاً عن اللسان، وإغلاق الفم لا يعني الصمت. «إذ لا فرق بهذا بين الإنسان والحيوان»[2]، ينبغي لصمتِ الإنسان أن يكون ذا دلالة: فن الصمت، فن مُفارق للتكلم، لأنه يدعو إلى «السيطرة على اللسان» أو «إمساكه» للدفع جيداً إلى ما يسمى الدلالة الضمنية Tacita signification للفصاحة الصامتة، أي دلالة الجسد والوجه.

يندرج هذا الكتاب في تقاليد بلاغة الجسد، فن الصمت يعني فن الجسد وتهذيبه، ومساهمة في هذا الجزء الأساس من البلاغة المسمى الفعل الخطابي، الذي كان له شأن عظيم في العصر الكلاسيكي، ثم خبت جذوته بعد ذلك.

تكمن أهمية دراسة دينوار، كغيرها من الدراسات الكثيرة الأخرى، في تذكيرنا بأن الصمت أحد المكوّنات الأساسية للفصاحة. وإنه ليس بوسعنا فهم تأثير الخطاب، استناداً إلى الخلق الكلامي القادر على إبدائه، كما لا يسعنا وقف البلاغة على مجرد تصانيف المهارات والوجوه البلاغية. مهما كان

---

١ - القس دينوار: فن الصمت، منشورات Despre 3، باريس ١٧٧١، ص٥٢، جيروم ميّون J.Millom، سلسلة «ATOPIA» ١٩٨٧، ص١٠٥ (سنختصر من الآن فصاعداً بـ: ج. م).

٢ - المرجع السابق، ص٣ (ج. م، ص٦٢)، انظر لاحقاً.

قبولنا ضعيفاً للإعراض عن «فيض» الكلمات «وإفراطها»، ترى عندها جسد الخطيب وهو يتكلم بطريقة صامتة. الحقيقة أن الفعل في مجال الفصاحة، يأتي من خارج الخطيب، من رباطة جأشه، ومن صوته وحركته التي عليه موازنتها مع الموضوع الذي بصدده، يقول شيشرون: «الفعل، إذا جاز القول، يعني فصاحة الجسد: وهو على قسمين: صوت وحركة. الأول يؤثر في الأذن، والثاني في العينين. ويقول كانتيليان Quintillen: هناك ثمة حِسّان، نمرر من خلالهما مشاعرنا وأهواءنا في نفس المستمعين»[1].

الفعل فن الجسد والصوت. في فن الصمت يتخلى دينوار عن التلفظ pronunciatio، ويقصر بلاغة الجسد على الحركة والتعبير، كما يختزله إلى فن ما قلّ ودلّ، أي فن الجسد الثابت، والحركة المدروسة، والتعبير المُقنّن. بحسب وجهة النظر هذه، لا ينفصل كتاب فن الصمت عن دراسة أخرى وضعها دينوار في عام ١٧٥٤: **فصاحة الجسد في بلاغة الخطابة أو عمل الواعظ**. وقد وصف هذا الأخير فن الصمت: «الإنسان الممتلئ إحساساً يبقى جامداً للحظة. وهذا النوع من التأثر يجعل نفوس المستمعين في حالة ترقُّب»[2].

من ثم، قد نجد في كتاب **فن الصمت** العناصر كلّها التي يقوم عليها: التذكير بأهمية الصمت في فصاحة الجسد، من جهة، ومتطلبات أخلاقيات الصمت في الكلام والكتابة، من جهة أخرى.

---

١ - موسوعة دالامبير d'Alembert، مادة: Action = فعل.

٢ - القس دينوار: فصاحة الجسد، أو عمل الواعظ، باريس، منشورات G.Des Prez، ١٧٦١، ط٢، ص ٢٣٧.

تَمَرُّسات الصمت: الانتحال والرقابة والكياسة

يحدثنا دينوار عن احتمال وجود وباء التكلم والكتابة.

الرهبة من التكلم في الدين والحكومة والكتابة عنهما أشبه بمرض وبائي أصاب عدداً كبيراً من الحيوانات من بيننا، فقد وقع الجاهلون ومعهم فلاسفة اليوم في نوع من الهذيان[1].

يقول دينوار إن المرضى كثيرون «ضائعون بين اللسان والقلم»، وهنا تصبح النبرة جدلية، ويحدد الكاتب من يستهدفهم: «الفلاسفة الجدد»، أو «الفلاسفة الحاليون» الذين ينهمكون في الإفراط بالكلمات. كما يهاجم أنواع الاتجاهات العقلانية كلها، والجدلية، والمادّية، والأفكار التي تُعلي مرتبة العقل فوق الوحي والإيمان والتقاليد. العقل يسمح لنفسه بالكلام والتفسير، في الوقت الذي ينبغي عليه الصمت أمام خبايا الإيمان. ويتجاوز الفيلسوف ليدين الكافر والمنافق، والدنيوي، والروح الفاسدة، والمهرطق، والمجدّف. ويحمل على الإفراط في الكلمات، ونشر الكتب بصفة خاصة، ويقف ضد «سمّ الكتب»، وضد الكاتب بوصفه «مُسَمِّماً لعقل الجمهور»، ومُفسداً للدولة، والأخلاق والدين.

طالما نظرنا إلى تداول الكتاب المناهض للمسيحية، بوصفه شراً لا شفاء منه، لأن انتقاله بين أيدي الناس بسرعة مدهشة، يشيع الظلمات في كل مكان يتوقف عنده[1].

---

١ - دينوار: فن الصمت، ص٤ (ج. م، ص ٥٧ - ٥٨)، انظر لاحقاً.

لذلك فإن كتاب فن الصمت يساهم في الرد على تطور القوى السياسية، والتيارات الفلسفية التي كانت ترفض سلطة الكنيسة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ حيث كانت الحياة الاجتماعية والبحث العلمي تنفلت تدريجياً من إقطاع الكنيسة، وجاءت الأنوار والنزعة الفردية لتفك قيود الأطر التقليدية. وما نشرُ كتاب **فن الصمت** سوى فعل سياسيٍ، وتحذيرٍ، بأقوى ما في هذه الكلمة من معاني.

لا بدَّ من الدفاع عن الكنيسة، وإسكات كل من يهاجمها. والكتاب بهذا المعنى، يصبح شاهداً على نوع من الحنين، لأنه مسكونٌ بقوة الإسكات المفقودة. «كيف تغلق أفواه المنافقين؟»[1] يتساءل صوت العقل الذي يتحدث من خلال دينوار. وهكذا، ترى النص يحلم «بإصلاح عام للكتاب». يبدأ ببحث دقيق وقاس، أشبه تقريباً باجتثاث المسمّمين[2] لكنه حنينٌ متأخرٌ ودفاعيٌ جاء في غير محله لصمت التفتيش الكبير: عندها ينذرُ الفلاسفةُ الثرثارين إلى «سيف العدالة»، و«نار الانتقام»، ودموع المشنقة، أي إلى «الصمت الأبدي»[3].

> *الكنيسة، في الحقيقة، أمٌ حنونٌ، ولطيفةٌ لا تطلب موتَ المخطئ: بل ترغب بحماسة، بأن يحيا، ويعود إلى رشده؛ تلك هي الغاية من دموعها وصلواتها؛ لكن لرقتها حدوداً*[4].

---

١ - فن الصمت، ص٢٧٩ (ج. م، ص ١٧٣ - ١٧٤).

٢ - فن الصمت، ص ١٢٧.

٣ - المرجع السابق، ص ١٤٥ (ج. م، ص ١٢٠)، انظر لاحقاً.

٤ - فن الصمت، ص ١٢٨.

٥ - المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ (ج. م ص ١٥٣).

ومع ذلك عليها أن تضع ألطفَ علاجٍ، لأن الزمن لم يعد صمت الحديد والنار.

في الماضي، كانت تُتبعُ أساليب بالغة القصر لإسكات من يصدّون المؤمنين عن سبيل العبادة القائمة على التسبيح بحمد الإله الحقيقي؛ آنذاك، كانت الشريعة القديمة تقضي برجم الكفّار.. لا شك أنها وسائل صارمة، لكن ثمة ما هو أرحم منها، وأكثر توافقاً مع روح الدين[1].

ينبغي، من الآن فصاعداً، التفكير بالله بصمت، والتأمل، والتفكير، وقلة الكلام، وجعل الصمت نظاماً، وليس وصيّة، وضرورةً أخلاقية، وليس فعلاً إيمانياً. بذلك يعود المرء ليصبح «مسيحياً وفاعلاً».

أتمنى أن يكون هذا الكتاب مُفيداً في هذا الزمن الذي أصبح فيه الصمتُ لازماً، بوصفه كذلك، لكثير من الأشخاص، ووسيلة أكيدة للحفاظ على احترام الدين وتقديم مواطنين مؤمنين، وكتومين، وفضلاء للدولة[2].

وهكذا، يمكن أن نقرأ في **فن الصمت**، بوصفه دراسةً تكثّف أو تستعيد مجموعة من إشكالات الصمت طيلة العصر الكلاسيكي، نقلاً لمسألة الصمت من الإيمان إلى الأخلاق. وبهذا فالكتاب يعكس، بطريقته، القطيعة بين الدين والأخلاق التي برزت تدريجياً في القرنين السابع عشر والثامن عشر[3]؛ حيث لم يعد الدين يهيمن على التصرفات العامة والخاصة، ويعطيها معنى، بينما

---

١ - المرجع السابق، ص ١٢٨.

٢ - فن الصمت، ص ٨ من التمهيد (ج. م ص ٥٩) ولاحقاً.

٣ - فن الصمت، ص ٨ من التمهيد (ج. م، ص ٥٩)، وانظر لاحقاً.

صرنا نرى «انقطاع الصلة المؤسسية بين اللغة المسيحية التي تتحدث عن تقاليد حقيقية مُنزّلة، وبين الممارسات المتناسبة مع نظام العالم»[1].

> *حلت الأخلاق الاجتماعية، التي تصوغ «نظاماً» للممارسات الاجتماعية وتجعل المعتقدات الدينية موضوعاً للاستعمال، محل المنظومة التي كانت تجعل من المعتقدات نظاماً مرجعياً للممارسات*[2].

إذاً، حلَّ فن الصمت، و«الإمساك» باللسان تدريجياً، ليكون المرء مسيحياً صالحاً، وفاعلاً فاضلاً، محل الصمت المضطرب والمُستهام إزاء الله، لأن الممارسات المدنية تنفصل عن التصرفات الدينية. وقد أخلت الحماسة للعقيدة الصامتة مكانها لتعليم «الفضائل» التي كان اليسوعيون Jesuites مهندسيها، بعد أن وضعوا أنفسهم طوعاً، ضمن مجال الممارسات «المدنية»، وأدخلوا فيها حس «الكياسة» و«الصدق» و«واجب الدولة»... ووضعوا الموضوع الديني للصمت في خدمة المصلحة العليا، فتأسست عندئذٍ، تربية معتدلة، ونظام للتحفظ وفن الكتمان.

> *الصمتُ أول مراتب الحكمة. والثانية، عدم الإفراط في الكلام، وحسن صياغة الخطاب. والثالثة معرفة أن يتكلم المرء كثيراً من دون رداءةٍ أو إطناب*[3].

---

١ - حول هذه النقطة، ينظر ميشيل دو سيرتو M. de Certeau: كتابة التاريخ، ص ١٥٣ - ٢١٢.

٢ - فن الصمت، ص ١٥٤.

٣ - المرجع السابق، ص ٤ (ج. م، ص ٦٣) وانظر لاحقاً.

صمت اللغة، ولغات الوجه

يضعُ القسم الأول من الكتاب، الذي يدرس علاقات فن الصمت بالكلام، مسألة الصمت في مرتبة المبادئ، والأنواع والعِلل. أي يدرجه أولاً في مرتبة الممارسات والتعاليم التي تضبط علاقات الصمت بالكلام «خلال ممارسة الحياة العادية». ويأتي بعد هذه القائمة من الاستعمالات تسجيل تصنيف أنواع الصمت في مجال اللغة والتعبير. عندها يضع دينوار تصنيفاً لأشكال التزام الصمت التي تعدُّ بمثابة سيميائية للصمت - حيث تحصى العلامات المميزة لمختلف الأنواع - بمقدار براغماتيتها - فيتم تحليل آثار التزام الصمت على الآخرين.

أخيراً، يرتبط بهذه السيميولوجيا تصنيفٌ ذو طابع نفسي، يفسّر الفروق السيميولوجية المصنّفة في نظرية للأمزجة والأهواء[1].

هنا، يعمل دينوار على إبراز خصوصية هذه الإرشادات العامة من خلال تطبيقها على المواقف من الدين والواجبات المرتبطة بـ«الحالات» الخاصة بمجموعة من الفئات والشروط الاجتماعية (الشباب، والشيوخ، والكبار، والشعب، والعلماء والجهلة...).

> *«عليك ألا تقطع صمتك، إلا إذا كان ما ستقوله أفضل من التزامك الصمت». تطرح الدراسة، في ترتيب الاستعمالات، سموّ الصمت وأسبقيته على الكلام: «ينبغي أن*

---

١ - ينظر لاحقاً الفصول ١، ٢، ٣ من القسم الأول.

يكون وقت الصمت أولاً في ترتيبه، ولن نعرف أبداً ما سنقوله، إلا إذا تعلمنا أولاً كيف نصمت[1].

هذه الأولوية المعطاة هنا لتربية الصمت على تعليم الكلام، تلتقي بالأهمية المتعارف عليها للحذر في منطوق الحكمة الشعبية، والصمت بوصفه علامة مميّزة لسلوك أوحى به الحذر. إن كان «الصمت من ذهب»، فذلك لأن ذاكرة الاستعمالات الشعبية ترتاب من الكلام، وتفضل عليه جمود الصمت الذي لا يُلزم المرء بشيء. «يقيناً إننا إذا نظرنا إلى الأشياء عموماً، فإن الصمت لا يعرضنا للخطر مثلما يعرضنا له الكلام. إذا كان الصمت من ذهب فذلك لأن كلفته أقل».

إن تفوّق الصمت على الكلام في السلوك العادي في الحياة، يقوم على نموذج المحافظة على الذات، التي تعود أصلاً إلى الجمود، وترى في الكلام مخاطرة. لئن اهتمت هذه الدراسة كثيراً بالفصل بين الصمت والكلام، وتحديد عدم إمكانية حلول أحدهما محل الآخر، وقلب هرمية هذه القيم التي تخص الكلمة بالكثير من الحظوة، فذلك لأن الكلام ينطوي على خطرِ انفلات الذات:

لا يمكن للمرء أبداً السيطرة على نفسه إلا بالصمت، وإذا تخلى عنه فإنه بذلك يفقد السيطرة عليها ويضيّعه الخطاب؛ بحيث ينتمي إلى الآخرين أكثر مما ينتمي إلى نفسه[2].

---

١ - المرجع السابق.

٢ - فن الصمت، ص ٥ - ٦ (ج. م) ينظر لاحقاً.

الكلامُ مضيعةٌ للإنسان. إنه ما لا سلطان لك عليه، فيهرب منك، دفقاً وجرياناً، وجرحاً فاغراً. إنه انسكابٌ يفرّغ الجسد ويسوح، وينتشر مبتعداً عن الذات.

نقرأ في فن الصمت خشيةً من إضاعة الجوهر الجسدي، إن انفلت اللسان من عقاله. ومن خطر الكلام عجزُ المرء عن الانتماء إلى نفسه، وفقدان سلطانه عليها، أما إنسان العصر الكلاسيكي فراح يتبع أهواءه. هذه الشروح، التي تقدمها دراسة دينوار، حول مخاطر الكلام تتفق مع ما جاء في دراسة مورفان دو بيلغارد M. de Bellegarde الموسومة كيف تصمت... حول ما شغل كتب الكياسة Cixilité، ودراسات حسن السلوك والتهذيب الدنيوي التي سادت في القرن السابع عشر، وقد عُدَّ الكلام والتعبير بشكل عام - أي تعابير الجسد والوجه - بمثابة أهواء على العقل لجمها وإخضاعها.

> *«لا يوجد أكبر من السيادة على النفس والأهواء»*[1]، *كما يقول بالتازار غراسيان في دراسته الموسومة رجل البلاط، ويضيف قوله عن اللسان إنه «متمردٌ وانفعالي ومستقل»، وهو «حيوان برّي، يصعب إعادته إلى القيد إن أفلت منه...»*[2].

---

١ - ب. غراسيان B. Gracian: رجل البلاط، منشورات champ libre باريس، ١٩٨٠.

٢ - المرجع السابق، ص ٥، ص ١٣٥.

غير أن فن الصمت يقترح أكثر من نظام للّغة. بل فنٌّ آخر للتكلم يجعلُ منه مجال الكلام، نموذجاً نفسياً للسيطرة على الأهواء المحكومة، ليتفق مع النموذج الديكارتي الوارد في دراسة الأهواء. إذا اتُفق على أن يكون الصمت فناً وفضيلة، فذلك لإسكات اللغة، لأن بلوغ المرء حدَّ الإفراط هذا فلا يعود ملك نفسه، يعرضهُ إلى خطر الانتماء إلى الآخرين أكثر من انتمائه إلى نفسه. لهذا، فإن للصمت فضائل دفاعية لا بد من تهذيبها. صحيح أنها فضائل قليلة، تكاد لا تذكر، لكن قد يكون لها مكانة الحكمة بالنسبة إلى إنسانٍ محدود التفكير، أو تُعدُّ بمثابة قدرةٍ لجاهل: فعدم قول المرء أي شيء، يعني أنه يعرف، وربما يفهم. فن الصمت هنا يفترض المعرفة، فلا إفراط نخشاه في الصمت - خلافاً للكلام - لأن اللاشيء أقل تأثراً بمقولة الإفراط. إذاً، خيرٌ لك أن تكون عبقرياً من الرتبة الأولى ببقائك في الصمت أغلب الأحيان، من أن تكون مجنوناً منهمكاً في لهفة الإفراط في الكلام»[1].

بهذا، يتفق مقتضى الصمت مع أنموذجٍ نفسي يهيمن عليه الإمساك بزمام الذات، ونموذج سلوكٍ اجتماعي يحكمه الحرص، في الوقت نفسه. وهو ما تجسد إبان القرن السابع عشر عبر شخصية المحظي الذي احتفى به غراسيان على نحو خاص، وهي شخصية يمنحها الصمت عدة وسائل: تجنب الإفراط، وإتباع طريق الوسط، طريق البينَ بينْ، فهي، رغم قلة بهائها، طريق أكيدة؛ وهي تحويل الصمت إلى فضاء للتماسك، والحساب الذي يضع المرء بمنأى عن الآخر؛ أخيراً، هي طريق اللعب بفن الصمت للإمساك بالآخرين، والاستحواذ والهيمنة عليهم.

---

١ - فن الصمت، ص ٧ (ج. م، ص ٦٦). ينظر لاحقاً.

ثمة رجالُ سياسة كبار يزعمون أن اكتشاف القدرة الكلية للإنسان لا تختلف كثيراً عن القدرة على التحكم به. لكني أرى أيضاً أنه لا فرق أبداً بين إظهار المرء لهواه، وتقديم الأسلحة لنصبح سادة أنفسنا[1].

سياسة الصمت هذه، بوصفها خدعة وتكتيكاً، ليست ما تقوم عليه دراسة دينوار، الذي يدعو إلى أخلاقية للصمت يحركها مثال الصدق، وتقترب من الدعاة الأخلاقيين الذين عرفهم القرن السابع عشر مثل لا بروير la Bruyére ولارو شفوكو la Rochefoucould.

الصمت لازم في كثير من المناسبات؛ لكن على المرء أن يكون صادقاً دائماً. قد نكتم بعض الأفكار، لكن علينا ألا نخفي أياً منها. ثمة أشكال للصمت، من دون أن يغلق المرء قلبه؛ وأن يكون كتوماً من دون أن يكون غامضاً وسكوتاً؛ ويخفي بعض الحقائق من دون سترها بالأكاذيب[2].

لذلك ينبغي إسكات اللغة، لكن في المقابل، لا بدَّ من إنطاق الصمت. وإنطاق الصمت يعني أولاً، الاعتراف بالعلامات التي تميّز مختلف الأنواع، كما في التاريخ الطبيعي للصمت، الذي قد يكون في الحقيقة تاريخاً للمناسبات، والظروف، والتصرفات؛ إذ يفرض الصمت نفسه في الحياة الاجتماعية. كما يعني طريقة التلفظ به ومكانه:

---

١ - ب. غراسيان. البطل، منشورات champ libre، باريس، ١٩٨٠، ص١٥.

٢ - فن الصمت، ص ٨ (ج. م، ص ٦٧) ينظر لاحقاً.

"إنه صمت روحاني حينما نلمح فوق وجه شخص، لا يقول شيئاً، سيماء منفتحة، محببة، حيوية، ومستعدة لإفهام المشاعر التي نريد البوح بها، من دون عون الكلام[1]."

الصمت يحكي لغة الوجه، وفن الصمت هو فن الوجه. إنه يشارك في العمل البلاغي، فن الفصاحة الصامت هذا الذي يُعدُّ جزءاً من الجسد الناطق.

أكثر ما يلاحظه المستمع في الفعل هو الوجه؛ ففيه تقوم الأهواء كلها بدورها؛ إذ لا بلدَ له ولا لسان. ويقرأه أكثر الناس جهلاً، فيتعرفون فيه على الورع، والطيش، والفرح، والحزن، والغضب، والشفقة. ينبغي أن يتوافق مع الفاعل، ويعبّر عن حركات النفس، أو يجعل الآخرين يتنبؤون بها. إنه يتكلم أحياناً بفاعلية تفوق فاعلية أكثر الخطابات فصاحة؛ وهو يستدرك لصالح الخطيب أو ضده، تبعاً للانطباع الأول الذي يتلقاه المؤلف[2].

كما ينبغي أن نتعرف في الوجه على لغةٍ للصمت. إنه يتكلم اللسان العام للأهواء الذي يتقدم على الكلام نفسه، لأنه أكثر فاعلية. إنه يقدم لنفسه في مقروئية أولى، تسبق القوانين والمعارف، وقد تقدم لغة الجسد هذه الحالة الأولى للسان، وشرط إمكانيته، وأصل أي بلاغة. وربما يقدم مدخلاً إلى بعدٍ رمزي سابق على الكلمات، إلى سيميائية للصمت لن يتمكن الكلام من تفكيره.

---

١ - فن الصمت، ص ١٠ (ج. م، ص ٧٠) وينظر لاحقاً.

٢ - دينوار، فصاحة الجسد، ٢٢٤.

هنا يعدد دينوار أشكال الصمت المرحلي (التكتيكي): نحن إذاً، كما هو الحال عند غراسيان، أمام براغماتيّة السحنة التي تنشر الأحابيل الصامتة للسيطرة على الآخر وتضليله. ثمة صمت «مصطنع»، وصمت خادع بهدف الإخفاء «حينما لا يتكلم المرء إلا ليفاجئ الآخرين»[1]؛ وصمت «المجاملة» بغية التملق، وهو العدة الأساسية لفن مجالسة الأمراء، وهو ما يسمى الصمت المرآوي en miroire؛ وهناك الصمت «التهكمي»، الذي يقوم على التلذذ السري بالآخر؛ وصمتُ «الاحتقار»، الذي نلجأ إليه بغية التحفظ والانتظار؛ وصمت البرود اللامبالي عندما يهدف الصمت إلى دفع الآخر إلى الكلام، والإفصاح عن نفسه للقيام بالحركة الأولى. الإخفاء. وإكراه الوجه على الصمت اللامبالي، أو الخدع الإيهامية، يعني هنا التحكم بالآخر، كما يرى كل من ماكيافيللي وغراسيان.

لكن التقاليد التي تندرج فيها دراسة دينوار تختلف جزئياً عن اللعبة البذيئة القائمة على الأقنعة والمرايا. يضع دينوار، في مقابل سياسة الصمت هذه التي تجعل من الوجه أداة للسيطرة على الآخر، من دون أن يكون مهيمناً عليه، أخلاقيةً تقوم على الحيطة، والمناسبة، وعلى علاقة غير واضحة تماماً

---

١ - فن الصمت، ص٩ (ج. م، ص ٦٩)، كذلك الأمر في رجل البلاط. «الخدع المقصودة»: «حيث يلجأ الرجل الحاذق إلى استخدام أسلحة الخدع المقصودة. إنه لا يفعل أبداً ما يبيّن أنه يرغب في فعله؛ إنه يسدد على هدف، لكنه يفعل ذلك بغية خداع العينين اللتين تنظران إليه. إنه يرمي كلمة في الهواء، ثم يقوم بعمل لم يفكر فيه أحد. إن قال كلمة، فذلك لكي يشغل اهتمام منافسيه. وبينما تشغل هذه الكلمة بال من يفكرون فيها، تراه يعمد فوراً إلى تنفيذ ما لم يكونوا يفكرون فيه» (ص٧ - ٨)

بالحقيقة. الفصاحة المقدسة التي احتفى بها دينوار في فصاحة الجسد، تحولت إلى سلوكيات عادية تتمثل في الانتظار والتحفظ، والتردد، وذابت فيها. إنها بلاغة دنيوية ومدنية لجسد اختُزِل بالوجه فقط؛ إنها بلاغة تضحي بطبقة النبلاء nobilitas - صمت الهيئة البهية التي تفرض الصمت والاحترام على الآخر - لحساب التنوعات والحذر. الإنسان الصامت، بالنسبة إلى دينوار أشبه بالمحظيّ (جليس الأمراء) عند غراسيان؛ إنه «مهندس المناسبة»[1]. صمته «حذرٌ، حينما ينبغي الصمت عن شيء ما، تبعاً للزمن والأماكن التي يتواجد فيها في العالم»[2]. وهذه هي السياسة التي يتميز بها فن الصمت، التي تختلف بهذا عن سياسة ماكيافيللي أو غراسيان: إنها طريقة لمقاومة سلطة الآخر، أكثر من كونها فناً للتحكم بهذا الآخر. إنها استخدام سلبي للظرف، أكثر من كونها استخداماً هجومياً للفرصة. إنها فن دفاعي للاحتراز، والانتظار، فنُّ منْ يهدِّئ الأمور، ولا يلتزم، أو يفصح عن مكنوناته. فنُّ الوسط، حيث لا يتم الإفصاح عن الحقيقة فعلياً، كما لا يتم كتمانها.

الصمت السياسي يعني صمت الإنسان الحذر، الذي يوفر نفسه، ويتصرف باحتراز، ولا ينفتح دائماً على الآخر، أو يُفضي بكل ما يفكّر فيه، ولا يفسر دائماً سلوكه ونواياه، ومن

---

١ - ينظر V. Jankelevitch، le Je - ne - sais - quer et le Presque - rien الـ le لا أعرف ماذا والتقريباً لا شيء، الجزء الأول «الطريقة المناسبة» باريس منشورات seuil، ١٩٨٠.

٢ - فن الصمت، ص ٩ (ج. م، ص ٦٩)، ينظر لاحقاً.

لا يُجب دائماً بشكل واضح من دون أن يخون ما للحقيقة عليه من واجبات حتى لا يفتضحُ ما عنده أبداً[1].

لا شك أن نجد، في هذا الفن الحيادي لممارسة نصف القول، المصادرَ الدينية والأخلاقية للمكونات الأساسية للمواقف القانونية والسياسية البورجوازية: الواجب القانوني لتحفّظ عمال الدولة، الأمر بالصمت، وغياب الرأي أو الحيادية السياسية لكل من ينبغي عليهم عدم التحدث بالسياسة.

أخلاقيات الصمت

هكذا، نرى في التقاليد، التي يؤمن دينوار بها، بعض عناصر أخلاقيات الصمت. والصمت فيها عبارة عن إجراء يهدفُ إلى السيطرة على النفس، أكثر مما يشكل تدبيراً للسيطرة على الآخر.

القسم الثاني من الكتاب المنذور لدراسة علاقة الصمت بالكتابة، يؤكد ما سبق قوله. إنه يكرر، في ما يخص الكتابة، ما سبق الحديث عنه في موضوع الكلام. هنا أيضاً، يعني الأمر احترام الأمير والدين، ومقارعة الإفراط: الإفراط في الكتب، والإفراط في مضامينها (كالتكرار والنحل، وكثرة التعليقات، والكتب الهامشية؛ وتضخُّمُ عدد الكتب والمؤلفين؛ والمجانية، والتفاهة، وعُجمة الكتابات...). ولا يكتب للأمير والدين «أبداً ما يكفي»، لكن ثمة «كتابات كثيرة» ضد الحكومة، وضد الله، «وهي

---

١ - المرجع السابق، ص ١٢ (ج. م، ص ٧١)، وينظر لاحقاً.

كتابات عديمة الفائدة». ينبغي على الكاتب أن يكون نوعاً مفيداً «كالنحلة التي تنجز عملاً ثميناً، ودقيقاً مفيداً لها وللناس»[1].

ولابدَّ، بنحو خاص، مكافحة «مرض الكتابة الغريب»، فشغفُ الناس بأن يصبحوا كتاباً، يدفع عدداً كبيراً منهم إلى «تلويث الورق». ينتقد دينوار الاستعجال، ويدين الحماسة للكتابة: ثمة من يفرط في الكتابة بل ويستعجل فيها كثيراً. وللوقوف في وجه حمّى الكتابة، لا بدَّ من تهذيب الكتابة، والتفكير: إنه زمن الصمت، وزمن الفكر الذي يسبق زمن الكتابة ويسمح به.

> *ينبغي الاستعداد للكتابة في زمن الصمت والدراسة [...]. لمَ الاستعجال، وركوب رغبة أن تصبح مؤلفاً؟ انتظر، ستتمكن من الكتابة حينما تعرف كيف تصمت وتفكر*[2].

وهكذا نجد في **فن الصمت** دعوة إلى التحفظ، والتفكّر، والاحتراز، وإنه من المفيد التذكير في زمن تنمو فيه ضرورة الكتابة، والتواصل للخضوع أمام قوانين السوق، حيث تحوّلَ الفكرُ إلى سلعة.

قد يكون فن الصمت دعوة للتفكير في هستيريا الكتابة المرتبطة بتطور النزعة الفردية، والنرجسية المعاصرة؛ والوقوف في وجه الأوامر بوجوب الكتابة؛ وربما، بشكل أعم، واجب كل منا في التعبير عن نفسه، لازدياد قوة الإكراه على الكلام، أو الكتابة، وصار أعمّ من مقتضى الصمت.

---

١ - فن الصمت، ص ٢٠٧ (ج. م، ص ١٢٧)، ولاحقاً ص ٥٦.

٢ - المرجع السابق، ص ٢٥١ (ج. م، ص ١٥٥)، ولاحقاً ص ٨٦.

لذلك يمكن لفن الصمت أن يقود إلى التفكير بالآثار الناجمة عن المكتوب من خلال مَسْرَحةِ Théatralisation الكلام. غالباً ما يرتبط نجاح الكتابات في يومنا هذا، بالدرمَنَة dramatization الشفهية، والجسدية، والمشهدية. إنها علامةُ لامبالاةٍ مُفارقة للشيء المكتوب، وعلامة على نوع من غياب المحبة. إذا نظرنا إلى المكتوب قياساً بآثار الكلام، نرى أنه يتجه عندئذٍ لتغطية خصائصه: مباشرته وقِصره وتبخّره السريع، أي أنه كتابة عابرة Scripta Volent.

لقد تنامى بُطلان الكتب ومعه تكاثرها، فشجع الكتابة العجولة.

هنا يبرز خطر يتضح من خلال استقرار صمت القناعات، واللامبالاة إزاء الفكر على خلفية عدم التمييز بين الأصوات التي تعرب عن فرادتها.

فن الصمت

تمهيد

حينما قدم لامي دولوراتوار أحد كتبه الموسومة: فن الكلام إلى الكاردينال لو كامو le Camus قال له: «لا شك أن هذا فن رفيع، لكن من سيقدم لنا [كتاباً حول] فن الصمت؟». إن أكبر خدمة نزجيها للناس تتمثل في تقديم مبادئه، وجعلهم يقبلون أن مصلحتهم تقوم على تطبيقها. فكم من إنسان أضاعه لسانه، أو قلمه! هل نجهل أن كلمة متهورة، وكتابات مدنسة، أو مُلحدة، كلفتهم التهجير والنفي، ولم يستطع حظهم العاثر تصحيحها حتى الآن؟

إن ضراوة الكلام والكتابة عن الدين والحكومة، أشبه بمرض وبائي، أصاب عدداً كبيراً منا. أُصيب الجاهلون والفلاسفة الطازجون، بنوع من الهذيان. ما هو الاسم الآخر الذي يمكن أن نخلعه على هذه الكتب التي تثقل علينا، وتفتقر إلى الحقيقة والمحاكمة العقلية، وليس فيها سوى الهزء والسخرية، والحكايات الفاضحة إلى حد ما؟ لقد بلغ الفحش حدّاً لا يكون معه المرء ظريفاً أو فيلسوفاً، إلا إذا تكلم الآخرون عنه، أو كتب ضد الدين، والأخلاق، وأصحاب السلطة.

هل لهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم أن يشفي تلك العقول المشوّهة؟ لا شك أنه غير قادر على ذلك، لأنها تحمل الحقد الكبير على من لا يزالون يُجلّون الفضيلة. في الحقيقة، تُبيحُ الفلسفة الجديدة كلَّ شيء عدا أن تكون مسيحياً ومواطناً. قد أتمكن، على الأقل، من بيان أن هؤلاء الناس مذنبون، وأمنع

الكثيرين ممن بدؤوا ينبهرون بنموذجهم، والوقوع في الضلال نفسه. لم تعد الفلسفة اليوم سوى إفراط في الكلمات. لا بدّ من العودة إلى وجهة نظر كل من سقراط وسينيكا sénèque حينما نتحدث عن النحويين، وإلى المهندسين والفيزيائيين الذين يقولون: «علينا أن ننظر في ما إذا كان هؤلاء الناس يعلموننا الفضيلة أم لا، وبما إنهم يعلموننا إياها، فهم فلاسفة». علينا من خلال هذه الحقيقة العامة، أن نحكم على المؤلفين الذين يستحقون اسم الفيلسوف، حيث يزعم كثير من الكتاب بأنهم عقلاء، وينسبونه إليهم وحدهم.

مهما كان جنس من سيقرؤون هذا التعليم وظرفهم، فسيأخذ كل منهم ما يناسب اهتمامه. ليس عليَّ أن أقوم بهذا التطبيق، وإذا ما تسنّى لي ذلك، لن أتمكن من استخدامه، ربما من دون أن أتجاوز قواعد الصمت التي أقترحها على الآخرين.

بما أنه ثمة سبيلان للتعبير، أولهما سبيل التعبير بالكلمات، والثاني بالكتابة والكتب، هناك أيضاً طريقتان لالتزام الصمت. الأولى تتمثل بإمساك اللسان، والثانية بالإمساك عن القلم. وهذا ما يتيح لي تقديم الملاحظات حول الطريقة التي ينبغي على الكتاب أن يقبعوا، من خلالها، في الصمت، أو التعبير للناس عبر كتبهم، كما يقول أحد الحكماء: «ثمة وقت للصمت وآخر للكلام».

قدّم أحد مؤلفي القرن السابق [السادس عشر]، غاب عني اسمه، في رسالة بالغة القصر، قواعد للتكلم؛ فاعتمدتُ مبادئها، ووسّعتُ أفكارها. أتمنى أن يكون هذا الكتاب مفيداً في هذا الزمن الذي صار فيه الصمت لازماً، ووسيلة أكيدة ككثير من الأشخاص من أجل الحفاظ على احترام الدين، وتقديم مواطنين أوفياء، وكتومين، وفضلاء للدولة.

القسم الأول

مقدمة

تتوفر لدينا قواعد لدراسة العلوم وتدريبات الجسد. وتغص جمهورية الأدب بما يخص فن التفكير، وفن الفصاحة، ومقدمات إلى الجغرافيا، والهندسة، وما إلى ذلك. فلم لا نعكف على تعليم فن الصمت، وهو فن هام ما تزال معرفة الناس به ضئيلة؟ تعالوا نشرح مبادئه وكيفية ممارسته. لكن لن أبدأ كتابي بعرض ما يمكن استخلاصه من مزاياه، لأن الجميع يعرفها إلى حد كافٍ.لذلك، سأكتفي في هذه المقدمة، بعرض بعض الملاحظات اللازمة لبقية هذا الكتاب.

١- لا يمكن معرفة بعض الأشياء بدقة، إلا بشرح بعض الأشياء الأخرى التي لها بها علاقات أساسية. فالحديث عن الظلمات رهنٌ بمعرفة النور، والراحة بالحركة، وما إلى ذلك. إذاً، في دراستي للصمت، سأتطرق في أغلب الأحيان إلى الكلام، ليتضح الأول بالثاني، أو نلجأ إلى تفسيرهما معاً. لكن سنولي اهتمامنا إلى ما له علاقة بقواعد الصمت.

٢- أفترض هنا، أنه لكي تصمت، لا يكفي أن تغلق فمك، والكفّ نهائياً عن الكلام: فلا يوجد في هذا أي فرق بين الإنسان والحيوان، لأن الحيوان صامت بطبيعته؛ لكن ينبغي أن يعرف المرء كيف يمسك لسانه، ويختار الأوقات الملائمة للتحكم به، أو إطلاقه باعتدال، واتباع القواعد التي يقتضيها الحذر في هذا المجال، وكيف نتحيّن، في أحداث الحياة، تلك

الفُرصُ التي لا ينبغي اختراقه فيها، وأن نتمتع بصلابةٍ لا تنثني، حينما يتعلق الأمر بملاحظة كل ما رأيناه مناسباً لالتزام الصمت، من دون أن نناقض أنفسنا: هذا كله يفترض التفكير والنور والمعرفة.

ربما انطلق الحكماء القدماء من هذا الرأي القائل «إذا أردت تعليم الكلام، عليك بمخاطبة الناس، لكن لا أحد يملك تعليم متى ينبغي علينا أن نصمت بشكل كامل سوى الآلهة».

٣- المعرفة التي أتحدث عنها تختلف من إنسان إلى آخر، تبعاً لطباع هذا أو ذاك. هنا تكمن النقطة التي نميّز فيها طريقة التزام الصمت، التي يبدو أن العلماء والجاهلين يشتركون فيها؛ وهو ما سأعمل على بيانه لاحقاً.

أولى درجات الحكمة معرفةُ التزام الصمت، والثانية الاقتصاد في الكلام، والاعتدال في الخطاب؛ والثالثة، معرفة الإكثار في الحديث من دون أن يكون كلامك ممزوجاً بالإطناب، ممتلئاً به.

المبادئ التي يقوم عليها هذا الكتاب نقلناها عمّا تفوّه به قدماء الحكماء من الرجال، وعدنا بها إلى مأثور ما قاله الآباء القديسون، والعلماء الذين عرفوا بأنهم أكثر الناس استنارة في عصورهم.

الفصل الأول

المبادئ اللازمة لالتزام الصمت

١- عليك ألا تقطع صمتك، إلا إذا كان ما ستقولهُ أفضلُ من الصمت.

٢- لكلٍّ من التزام الصمت والكلام وقتهُ.

٣- ضع الصمت في أولى درجات الترتيب؛ فلا يمكنك إحسان الكلام، إلا إذا تعلمت أولاً كيف تصمت.

٤- ليس هناك أقل من الضعف وعدم الحذر في الصمت، حينما يكون المرء ملزماً بالكلام، هناك خفة وعدم تحفظ في الكلام؛ حينها نضطر إلى الصمت.

٥- لا شك، حينما ننظر إلى الأشياء بشكل عام، نجدُ أن المخاطرة في الصمت أكثر من المخاطرة في الكلام.

٦- لا يصبح المرء سيّد نفسه أبداً إلا في الصمت: وبعيداً عن هذا، يبدو أنه يفيض، إذا جاز القول، بعيداً عن ذاته، ويفضح نفسه بالخطاب؛ بحيث يصبح ملكاً للآخرين أكثر مما يكون ملكاً لنفسه.

٧- حينما يكون لدينا شيء هام نقوله، علينا أن نوليه اهتماماً خاصاً: أي أن نقوله لأنفسنا. وبعد هذا الحرص، ينبغي أن نقوله لأنفسنا مرة ثانية، خشية الوقوع في الندم عندما لا نعود قادرين على الإمساك بما صرّحنا عنه.

٨- إذا كنا نريد صيانة السر، فلا يمكننا الصمت كثيراً؛ لأن الصمت يكون عندئذٍ أحد الأشياء التي لا يُخشى فيها عادة من الإفراط في الخشية.

٩- إن التحفظ المطلوب لالتزام الصمت جيداً في السلوك العادي للحياة، لا يقلّ فضلاً عن البراعة في الخطاب والمثابرة عليه، وليس ثمة فضل

في شرح ما نعرف، أكثر من السكوت، على ما نجهل، لأن فضلَ الحكيم أفضل من محاكمة الفيلسوف أحياناً؛ فصمت الأول درس للسفهاء، وإصلاح للمذنبين.

١٠- يقوم الصمت أحياناً، مقام الحكمة لمن ضاق أفقه، ومقام المعين للجاهل.

١١- تدفعنا طبيعتنا للميل إلى الاعتقاد بأن الإنسان المقتصد في كلامه ليس عبقرياً عظيماً، وأن الآخر المفرط في الكلام، طائش أو مجنون. من الأفضل ألا نعد عباقرةً من المرتبة الأولى، فنلوذ، في أغلب الأحيان وراء صمتنا، من أن نُعدَّ مجانين ونحن منهمكون في لهفة الإفراط في الكلام.

١٢- السمة الخاصة بالإنسان الشجاع هي أن يكون فعلهُ أكثر من قوله. وصفة الإنسان الحكيم تتمثل في قلة الكلام، وعدم قوله إلا الأشياء المعقولة دائماً.

١٣- مهما يكن ميلنا نحو الصمت، علينا أن نحذر دائماً من أنفسنا؛ وإذا انتابنا الكثير من الهوى لقول شيء ما، فغالباً ما يكون سبباً كافياً للتصميم على عدم قوله.

١٤- الصمت ضروري في كثير من المناسبات؛ ولكن على المرء أن يكون دائماً صادقاً؛ قد نمسك عن بعض الأفكار، لكن علينا ألا نخفي أياً منها، وهناك ثمة طرق لالتزام الصمت، من دون أن يغلق المرء قلبه؛ وأن يكون كتوماً من دون أن يكون كئيباً وصموتاً! ويخفي بعض الحقائق، من دون تغليفها بالأكاذيب.

الفصل الثاني
الأنواع المختلفة للصمت

يوجد ثمة صمت حَذِر، وصمتٌ ماكرٌ.
صمتٌ مُجامل وصمتٌ تهكمي، وصمتٌ روحاني، وصمتٌ غبي.
وهناك صمت الاستحسان، وصمت الاحتقار. والصمت السياسي. وصمت الدعابة، وصمت النزوة.

١- يكون الصمت حذراً، حينما نعرف كيف نصمت إزاء حديث ما، تبعاً للوقت وأماكن تواجدنا في العالم، وتبعاً لتقديرنا للأشخاص المنخرطين معهم سلوكاً وعيشاً.

٢- ويكون الصمت ماكراً، عندما نسعى إلى مفاجأة الآخر؛ إما لبعث الحيرة في نفس من يصرّحون لنا بمشاعرهم، من دون تمكينهم من معرفة مشاعرنا، مستفيدين مما سمعناه ولاحظناه، رغبةٍ منا في الرد بطرق خادعة.

٣- الصمت المُجامل ليس تمريناً على الاستماع إلى من نخطط لإثارة إعجابهم فقط، بل لإبراز علامات المتعة التي نشعر بها أثناء تبادل الحديث معهم، أو بسبب سلوكهم أيضاً، بحيث تسد النظرات والحركات عثرات الكلام من أجل تأييدهم.

٤- الصمت التهكمي تحفظٌ خبيثٌ ومصطنعٌ، يتمثل في عدم مقاطعة من يتكلم بأشياء لا معنى لها، أو بلا روية، أو يتلفظ بحماقات بغية التلذذ بالمتعة الخفية لمن يتحدثون بها، وهم غافلون ظناً منهم بأننا نستحسنها أو نوافقهم عليها.

٥- حينما نلاحظ على وجه شخص سيماء منفتحة ومحببة وحيوية، هدفها الإفهام من دون عون الكلام والمشاعر المراد إبرازها، فهذا يدخل في إطار الصمت الروحاني.

٦- وبالعكس، يكون الصمت غبيّاً حينما يكون اللسان جامداً، وينتفي الإحساس عن الروح، فيبدو الشخص غارقاً في حالة من الصمت العميق الذي يخلو من أي دلالة.

٧- صمت الاستحسان، وينطوي على قبولنا، والاكتفاء بإعارته اهتماماً مشجعاً للحالة التي نحن بصددها، أو التعبير، عبر بعض العلامات الخارجية، عن قولنا بأنه معقول، ويحظى بموافقتنا.

٨- أما الصمت المعبّر عن الاحتقار، فيتمثل في عدم التكرم بالرد على متحدثينا، أو المنتظرين منا رأياً فيهم، والنظر ببرود أو تعالٍ على كل ما يبدو منهم.

٩- الصمت المعبّر عن المزاج، هو صمت من لا تتحرك أهواؤه إلا بما يمليه عليه استعداد المزاج وقلقه الذي يهيمن فيه، بما ترتبط حالة عقله وعمليات إحساسه به؛ فيرى الحُسن والقُبح في ما يسمع، تبعاً لأداء الجسد لوظائفه بشكل سيء أو جيد، والذي لا يفتح فاه إلا مُزاحاً، ولكي لا يقول سوى كلام فظٍ أو نابٍ.

١٠- الصمت السياسي، هو صمت الإنسان الحذَر، الذي يحترس، ويتأنى في تصرّفه، ولا يبيح بمكنوناته أبداً، ولا يفصح عن كل ما يفكر فيه، ولا يفسّرُ تصرفه ومخططاته أبداً، والذي، من دون أن يتجاوز قوانين الحقيقة، لا يجيب بوضوح دائماً، حتى لا يكشف عما في داخله. شعاره يتمثل

في قول النبي اسحق Isaie: سرّي لنفسي، secretum meun meni. هناك مجادلون مخادعون وخبثاء، لا نعرفهم كثيراً في هذا العالم، ولا جدوى من ذكرهم هنا omnium temporum hominess وصمتهم أشبه بما جاء في رقم (٢).

الفصل الثالث

أسباب الاختلاف في أنواع الصمت

لتنوّع أشكال الصمت علاقة بطبائع الناس وعقولهم.

١- فالصمت الحذر يلائم الأشخاص الذين يتصفون بالنباهة والحس السليم، والقدرة التامة على ملاحظة الظروف التي تقتضي الصمت، أو الكلام.

٢- والصمت الماكر الذي يلائم النفوس الصغيرة، والرجال الحذرين الميالين للانتقام، والمهتمين بمفاجأة الآخرين.

٣- أما من يتميز بطبع هادئ، وسهل، ومتسامح، فهو أميلُ إلى الصمت المجامِل.

٤- ومن يحب التلهي بكل شيء، يرغبُ أيضاً في ممارسة نوع من الصمت الساخر.

٥- أما الصمت الروحاني، فسمةُ صاحب الانفعالات الحادة ذات الآثار الملموسة على الخارج، فنراها في وجوه من تحركهم، من الفرح، والحب، والغضب، والأمل، وهي كلها تؤثر في الآخرين من خلال الصمت الذي يرافقها، أكثر من تأثير الخطابات التي لا تقوم إلا بإضعافها.

٦- ويسهل على أصحاب النفوس الضعيفة والحمقى اللجوء إلى الصمت الغبي.

٧- أما صمت الاستحسان، فيفترض حكماً مؤكداً وكتماناً كبيراً لاستحسان ما يستحق ذلك.

٨- آخر نوع من أنواع الصمت، أي الصمت المعبّر عن الاحتقار، فناتجٌ عن الغطرسة، والكبرياء. وهو يحمل من يتّصف بهذه الصفة على الاعتقاد بأن الآخرين لا يستحقون لحظة واحدة من اهتمامه. وقد نجدُ، في بعض الأحيان، هذا الصمت عند من لا يرى أن ما يحتقره بصمته جدير بالمزيد من الاعتبار.

تلك هي الآراء العامة التي ينبغي أن نعرفها عن الصمت، لكي نتعلم كيف نُمسك عن الكلام. فشرحنا طبيعتها وأنواعها المتباينة، وأسبابها المختلفة. وتعلّمنا ممارستها حقيقتها في العالم. وما قلناه عن الصمت يصحُّ وكالةً، على الخطاب الحذر، أو الماكر، والمجامل، أو المستهزئ، أو الروحاني، أو ما دل منه على الاحتقار، وما إلى ذلك.

القسم الثاني

مقدمة

قمنا بتقديم البرهان على أن مثالب اللسان رهنٌ بسوء التعبير أو الإكثار من الكلام، أو في عدم كفايته. وقياساً أقول الشيء نفسه فيما خصَّ القلم. فتارة ترانا لا نجيد الكتابة، فتبقى ناقصة. وبعد ما ذكرته عن مثالب اللسان، يسهل على المرء إدراك ما يعترض القلم من عثرات. لست عازماً على وضع دراسة نقدية مطوّلة، أو ربما متروّية، لما تعج به المكتبات من كتب.

سأكتفي بالوقوف على الفكرة القائلة إن الصمت قد يكون بالغ اللزوم لعددٍ من المؤلفين، إما لسوء ما يكتبون، أو لإطنابهم في ذلك. وقد يكون من المَلاحة لو غلبَ على ما يضعه الكتابُ الحصيفون المتمكنون من طبيعتهم، والمحبون للصمت حبّاً جمّاً، على ما يضعونه بين أيدي القراء، تعليمات تقوم على الحكمة والأهمية.

ولإقناعكم بهذه الحقائق الخاصة بثلاثة أنواع من المؤلفين، إليكم هذه الفكرة التي جالت في خاطري: وهي العمل على الإصلاح العام لطائفة الكتّاب.

لا بدّ أولاً، من القيام ببحث دقيق وشاق، أشبه بذلك الذي نقوم به حينما نريد بثّ السموم من بلدٍ معين، أو نطرد أولئك الساعين إلى إفساد عُملة الدولة. وما أكثر أولئك الكتّاب المذنبين! دعونا نقصر هذه الفكرة على شيء أكثر تحديداً من العالم كله، وندخل في أحد هذه الصروح البديعة، حيث يعرض كتّاب أمام أعين الجمهور. إنه مشهد يدهشنا في البداية، أكثر

مما تدهشنا مكتبة غنية مترامية الأطراف. معرضٌ يضم أكثر من ثمانين ألف مؤلف من كل بلد وجنس ومواصفات، يقف كل منهم في مكانه المناسب، ويتميّزون بالحقبة الزمنية التي ينتمون إليها، أو بالمكان الذي عاشوا فيه، أو بطبيعة الأشياء التي عملوا على دراستها؛ وتراهم مستعدين للرد على أسئلتكم، سواء بلسانهم الطبيعي إذا كنتم على دراية به، أو من خلال المترجمين إذا عزَّ عليكم سماعهم بطريقة أخرى.

ستجدون بينهم العلماء المدعوين إلى إيضاح عناصر العلوم الخاصة بتعليم حُسن الكلام وسلامة الكتابة.

هنا تجد سادةً عظاماً في فن الفصاحة والشعر، ومعرفة الطبيعة، وعلوم الأزمان، والنجوم، وعلى درايةٍ بأعراف العالم وأخلاقه المتنوعة. إنهم أبطالٌ، ورجال دولة، وسفراء يعلمونك العمليات الحربية التي شهدوها في زمانهم، وغوامض أشعلت الثورات السرية والعلنية في الإمبراطوريات.

وهناك علماءٌ منهمكون في مقارعة أعداء الدين، وآباء، ودكاترة، ومترجمون، وقديسون عملوا في كل العصور، بحماسة واقتدار على تفسير شريعة الله، وتعليمها، وبيان مغاليقها، والوعظ بها، إلخ. إنه لمشهد عظيم، مَهيب، وجليل. مع ذلك سأكرر ما سبق لي قوله: إنهم غالباً لا يحسنون الكتابة، ويكثرون منها جداً أحياناً، وتراهم دائماً مقصّرين.

الفصل الأول
سوء الكتابة

ما من زمنٍ إلا وشهد جزءاً من اهتمام أفضل الأقلام بتصحيح الكتب السيئة أو مقارعتها. فما أكثر كتب الهجاء، والقصص الخاطئة، والشروحات الشاذة، والحكايات المخزية، والكتب المناهضة للدين والأخلاق. وهذا ما أعنيه بقولي الكتابة السيئة. وهناك دواوين لا تستقبل أحداً إلا إذا اتصف بواحدة من الصفات الآنفة.

فالعلماء الحكماء الأوروبيون يغلقون بيوتهم دون الكتب، اللهم إلا إذا كانت مفيدة للعقل والقلب، فإذا اضطرهم الحال أو الواجب اقتنوا بعضها، إما لاكتشاف سمومها لتحذير ضعفاء الناس الذين يفاجأون بها، أو لمقارعة مذهبهم، فيفردون لهم حيزاً خاصاً، كما لو كانوا في نوع من السجن الذي يفصل الكتّاب المذنبين عَمّن يُجلّون الدين ويحترمون الأخلاق.

يقول أحد الطيبين من الرجال «هذا هو العالم»، وهو يشير في مكتبته، إلى رفوف تتضمن قصصاً غريبة، وكتباً أخرى من هذا النوع. ويضيف قوله «هذا هو الفردوس»، وهو يشير إلى كتب التقوى المصفوفة في الجانب الآخر. ويضيف «هذا هو الجحيم» حيث كتب الهرطقة، أو الخطيرة، أو التي تحبذها الفلسفة الحالية، والتي يغلق عليها الباب بالمفتاح.

هناك إذاً كتّابٌ سيئون. فإما أن تنشأ هذه الفوضى من المواد التي تتم دراستها، أو من فساد العقول التالفة التي تسمّم كل شيء من خلال مظهرها السيئ، أو أن المؤلف والمادة يساهمان في جعل الكتاب كله سيئاً.

الفصل الثاني
الإفراط في الكتابة

هي ثاني مثالب المؤلفين، التي يجب إظهارها، قبل الانتقال إلى المثلبة الثالثة ومعالجتها.

ثمة إفراط في الكتابة. فترانا نكتب أشياء عديمة الجدوى، ونُكثر، على المدى الطويل، من كتابة أفضل الأشياء؛ ونكتب عن احترام الحدود التي يفرضها العقل البشري، وفي الموضوعات التي منعتها عنا العناية الإلهية. نكتب عن أشياء ينبغي الاقتناع بها، حينما لا نكون مكلّفين بها، مع أننا نملك القدرة على الحديث عنها. كل إفراط مُلام، وهو ما ينبغي التوقف عنده قليلاً. وسنختتم بالإشارة إلى المبادئ الضرورية للتعبير من خلال الكتابات، والكتب.

١- الكتابة في ما لا جدوى منه.

وهو عيبُ المؤلفين الذين تنقصهم النباهة، ولا يعرفون ماذا يريدون. أو أي موضوع مفيدٍ يختارون. فهذا كاتبٌ عقدَ العزم على وضع كتاب جديد، لا يتضمن سوى تعليقات على حروب القيصر، وثانٍ حول حياة الإمبراطور تيودوس Théodos العظيم (٣٧٩-٣٩٥)، وما إلى ذلك. فلماذا نشغل أنفسنا بما كتب بشكل جيد من غير طائل، إذا كانت قد خطت تلك الكتب أيادٍ أمينة؟

وثمةَ عالمٌ شرعَ في العمل من أجل الجمهور، فاتخذ إجراءاته، وفكر وتأمل في شيء خارق للعادة، فيكتب حوليات بارونيوس Baronius أو

القديس أغسطينوس شعراً. فلمَ لم يتركها نثراً؟ فقد كانت بالغة الجودة، وحظيت بإعجاب العالم الحكيم. كم من كتاب وضع على هذا النحو!

هناك من يكتبُ لمجرد الكتابة فقط، وهو أشبه بمن يتكلم من أجل الكلام فحسب. فلا تجد في خطابات هؤلاء، وكتب أولئك عبقرية، أو هدفاً؛ نقرأهم فلا نفهم من كتبهم أو نتعلم شيئاً. فلمَ يكتبون إذاً؟ هكذا نجد العالم مليئاً بكتب عقيمة، وغير مثمرة، بسبب سوء اختيار موضوعاتها، أو لأنها لا تعني شيئاً. قليلةٌ هي الكتب التي تتضمن شيئاً حسناً. لكن كم تضم المكتبات من الكتب التي لا تُفتحُ أبداً، لأنها تخلو مما ينفع الناس؟ وكم من كتب أخرى مطوية، لا نجد فائدة إلا في صفحة أو اثنتين منها، يبدو أنها أفلتت منهم من دون علمهم، وينبغي أن تبحث عنها، وتكتشفها ضمن ركام الأشياء التي تبعث على الضجر؟ أوه! الكتاب الجيد، الكتاب العجيب! هناك كتب لا نقرأها أبداً، أو لا يمكننا قراءتها من دون إحساس بالضجر، أو القرف! مثل هذا الكتاب قد يكون حبيس صفحتين مطويتين؛ حيث أربعون ألف مؤلف قد يتم اختزالهم بما كتبوا من أشياء مفيدة، ومن إبداعهم. عندئذ: قد نملك في غرفة صغيرة مكتبة بالغة الثراء والأهمية، ويمكن أن نقرأها أكثر من مرة خلال حياتنا، وبهذا لا يكون لدينا إلا عدد صغير من الكتب التي تستحق القراءة بعد ذلك.

الكتّاب الجيدون أشبه بالنحلة التي تقوم بعمل ثمين، ودقيق وفيه منفعة لها وللناس؛ لكن يبدو أن الكُتّاب الذين أتحدث عنهم غير مصنوعين لأنفسهم ولا للآخرين؛ لكن، قد تقولون: إنهم مؤلِّفون، لأنهم صنعوا كتاباً. قولوا بالأحرى، إنهم أفسدوا الورق، بعد أن أضاعوا وقتهم،

معتقدين أنهم صنعوا كتاباً. وفضلاً عن هذا، فهم ليسوا إلا كما كانوا، حتى لا نستفيض في النقد. ذلك هو حال هواة صناعة الكتب، والحكايات، والطرائف، والأشعار الغزلية، أو بالأحرى الفاسقة، إلخ.

إنهم، على الأقل، يعتقدون أنهم كتاب. وهو أمر لا شك فيه. لكن الجمهور سيُشْعِرُ هؤلاء الكتاب، عديمي الجدوى، بأن فرحهم لن يطول. فهم يحتقرون الكُتّاب الحكماء، الذين يعرفون جيداً هؤلاء الكتاب العابثين، الذين يثقلوننا كل يوم بكراريسهم، وأعني منهم السيد كيريون Querion، الذي تعرفه جمهورية الأدب بشكل جيد.

ما يزالُ مرض الكتابة الغريب، أو مرض قراءة ما يكتب، الذي نعاني منه منذ زمن طويل، يتضاعف كل يوم. يبدو أن الكتب تسد حاجات الروح، ولا بد أن يكون منها ما يلائم أمزجة الروح ومختلف درجات العقل. ومن ثمّ، يجب أن تتنوع من حيث جنسها، وجوهرها، تنوع الأطعمة التي نتناولها. ويدخل ضمن هذا الرأي، الجيد منها والمتواضع، والضعيف والغثّ، وما إلى ذلك. إذ لا يوجد قراء إلا ويجدون ما يناسبهم من الكتب. وكما هو الحال هنا، فإن الرأس هو الذي يهضم. المهم أن نختار القراءات المناسبة، ولكم قرأنا أحياناً مُصادفةً، كتباً لم نتخيرها طيلة حياتنا. لذلك نجد الكثير من العقول السقيمة، والرؤوس التي أتلفها الكيلوس chyle السيئ الذي ما فتئت تنتجه بقراءة الكثير من أشياء، أقل ما يقال فيها إنها عديمة الفائدة. نشكو من ثرثرة العقول التي تزداد بيننا بشكل غير عادي، كما يتضاعف عدد المؤلفين من كل طينة، والكتب من كل نوع، والقراء من كل المستويات. ولم نشهد أبداً مثل هذا الغليان في الرؤوس منذ خمسة وعشرين

أو ثلاثين عاماً. كل شيء يعجّ بأناس الأدب. وقد أصبح الاسم، على الأقل، شائعاً جداً، بل ومبتذلاً، بحيث صار اليوم مضحكاً، إلى درجة أن يكون المرء كذلك أو لا يكون. ومع ذلك، علينا التزام الحذر إزاء هذه الكثرة الزائدة. ونخشى أن تصبح نذير شؤم لانحطاطٍ لا مناص منه. الأجانب الذين يراقبوننا، يهددوننا بثورة أدبية. وقد بدأنا بحساب خسائرنا. فهم يزعمون أنهم يضعونها أمام أعيننا. في زمن مضى، لم يكن أحدٌ في فرنسا قادر على القراءة باستثناء رجال الدين والرهبان، وربما يأتي زمن لا نجد فيه شخصاً واحداً من دون تعليم. دعونا نتوقف عند هذا المشروع الذي يقدم لنا أفكاراً لطيفة، فقد كان في فلسطين مدينة تسمى مدينة الآداب أو الكتب، كاريات سيفر. لنتصور أنفسنا في أحد أجمل أمصار أوروبا، حيث الأمة كلها منهمكة بالآداب: إذا بالغنا في القول كل الأمة، فلنقل نصفها على الأقل: هناك جماعة الجسد وجماعة الروح؛ وبما أن للجسد عادة عدة استعمالات أكثر من استعمالات الروح، ومهما كانت جاذبية الروح، فإن الطبيعة وحدها تحقق المساواة بين طرفيّ هذه المعادلة. بالنسبة إلى جماعة الجسد، لن نجد مشقةً في معرفة عدد السكان ومدة عيشهم، لكن هل يمكننا معرفة كيف يتكاثر عدد جماعة الروح؟ كيف؟ يتم ذلك من خلال التقدّم الطبيعي الذي لا مفرّ منه. كلما انتشر التعليم، سنستمر فقط في شهوة الكتابة، وسيجد الناس أنفسهم جميعاً متعلمين، من دون ملاحظة ذلك تقريباً، فيؤثر الواحد منا في الآخر. ليس هناك عدوى أكثر دقة وسرعة من عدوى الكتب. الشعراء، أولئك الأوباش المُكثرون الذين يتنامون بيننا تنامي أشجار الخلنج في الأرض المجدبة. سيتكاثر الشعراء قريباً في كل

أرجاء هذه المنطقة ابتداء من كونكيه conquet وحتى سان جان بييه دو بور (فرنسا)، وفي كل أرجاء منطقتنا.

إذا كتب الناس كلهم وأصبحوا مؤلفين، فما هو مآل تلك العقول والكتب كلها التي أغرقتنا، وفاضت من حولنا وغمرتنا؟ باختصار، حينما يقال كل شيء، فعلامَ سيمارس العقل البشري نشاطه؟ وحينما نكون قد فكرنا في كل شيء، سنبدأ مرة أخرى، كما نفعل منذ زمن مغرق في القِدم، بالتفكير أيضاً، واجترار الأشياء نفسها؛ لن تثقل كاهلنا الجماعةُ الأدبية، كما كنا عليه قبل فترة من الزمن، بهذا العدد الكبير من الكتب التي لا يتسنى لها البقاء أكثر من لحظة واحدة، والتي تولد وتموت، وتعود لتختفي مرة أخرى. في العالم الأخلاقي، كما في العالم المادي، نجد التقلبات نفسها. انظروا، في الربيع، حينما تنشر الأرض ثرواتها وتفردها، ترى روعة الورود والأوراق ووفرتها! هذه الأشجار بالغة الجمال والكثافة، يأتي يوم واحد فتراها وقد جرّدت من كل شيء، حيث يُكمل الشتاء الخسائرَ، ولا يترك أي أثر من تلك الخضرة التي كانت تزدان بها الحدائق، والغابات والأرياف. وسيأتي يوم على هذه الكتب وتتلاشى فيه من حيث لا تدري، بعد أن شهدت الصحف على ولادتها، وأصبحت أثراً بعد عين.

أيتها الأعمال الصغيرة،

تعلمي كيف تموتين من دون تمتمة.

لنعترف، أنه ما من أمة تُقلّب الصحافة كالأمة الفرنسية وربما كثير من المطبوعات. المؤلفون ينبتون عندنا كالفطر. ولسوء الحظ، يتمتع أكثرهم

بكل الصفات. وفجأة استدارت الأمة نحو الزراعة، التي طالما أهملتها كثيراً. عندئذٍ، نشأت جماعات من المؤلفين الزراعيين فغطّوا الأرياف كلها، مع أن غالبيتهم لا يعرفونها إلا من خلال الكتب والغرف المعزولة. وقُدِّرَ لبعض العقول دراسة موضوع الأموال، وأعمال الحكومة، وسرعان ما اعتقد ألف كاتب وكاتب أنه أصبح وزيراً، أو من رجال المال. لم يعد أحد يكتب إلا عن الضرائب، والسياسة، وتلك الحرية التي تحولت إلى نوع من الهوى المناهض للعقل، وهو ما أثار انتباه الحاكم الذي فرض الصمت. وسنتحدث عن هذا الموضوع بشكل منفصل. هذا هو دعاؤنا بالرغبة في الحديث عن كل شيء، والكتابة في كل الأمور. وغالباً من دون معرفة، اللهم إلا تلك التي جاءتنا من بعض القراءات العجولة، أو من خلال محادثاتنا مع الناس. من يستطيع، على سبيل المثال، أن يحصي عدد الكراسات التي أنتجها روائيونا وشعراؤنا الصغار؟

منذ سنوات قليلة لا تجد شاباً يتخرج من الثانوية، إلا وتنتابه شهوة طباعة رواية، أو أشعار عابرة؛ وعلى كم كاتب يصح الهجاء الآتي الذي قاله روبيه دو بوفيست Robbé de Beauvest؟:

أيها الكاتب الصغير الزاحف في الفجور.
هل تظن أن لوحاتك الصغيرة تحاكي لوحات ميكيل أنجلو؟
هل تطمح بأن تكون أعمالك خالدة؟
انتظر حتى تطبق جفنيك نهائياً
لكي تجلّد أعمالك من جلدك
إنه الشيء نفسه تماماً.

٢ ـ إطالة أمد كتابة أفضل الأشياء

إذا كان الموضوع الذي نعمل عليه عظيماً ومفيداً، وتخيّرناه برويّة، فإننا نقع غالباً في مثلبة: إطالة أمد كتابة أفضل الأشياء. وهو ما يعود بالضرر على نجاح الكتاب.

عندما نعالج موضوعاً، لا بدَّ من القيام ببعض الإجراءات التي يحكمها العقل والذوق السليم. وعندما نكتب، لا بدَّ من الذوق والاستمرار والانتباه، كي لا نبتعد عن الموضوع، حتى لا يصيبنا ما أصاب من لازمَ طريقه من دون أن يبلغ هدفه. فإذا أضفت شيئاً إلى ما يقتضيه الموضوع أو انتزعت منه شيئاً، فإنك تشوّه الكتابة. إن للإنسان قامته الملائمة، فإن أطلتها أو قصّرتها شوّهته: فقد يصبحُ قزماً إذا انتزعنا منه الكثير، وسنجعل منه وحشاً إذا أضفنا إلى طوله الطبيعي بعض الدرجات. ينبغي أن يكون تماماً كما هو ليكون جيداً، فتسرُّ العين لمرآه. وهذه قاعدة صحيحة.

هذا يصح على الروح esprit: إذ ينبغي على المؤلف استكمال مشروعه. وإذا سعى وراء إعجاب القراء، عليه أن يتحاشى، بنحو خاص، الإطالة في أمدِ كتابةِ ما يكتبه من حَسنٍ ومعقول. فنادراً ما يشتكي الناس من الإيجاز، لكنهم يشتكون دائماً من الإطالة.

ويعود سبب مثلبة الإطالة عادة، إلى أننا لا نستخدم الزمن اللازم لتحديد المادة التي نتناولها، أو نُعمل فيها المراجعة، والحذف، والاختصار لتكون في حجمها المناسب. يستمتع الكاتب أحياناً بالوقوف عند أماكن تستهويه، بنحو خاص. هنا يكمن تمتعهُ، وغالباً ما يكون مبعث ضجر

للقارئ. ويعود سبب هذه المثلبة أيضاً إلى استعداد الكاتب لبعض الأشياء التي يعرفها، من دون أخرى يمّر عليها مرور الكرام.

وإننا نستشعر نقطة ضعفه هذه أثناء القراءة، ولا نغفر له ما يكتبه باستفاضة، ولا اكتفائه بمعالجة موضوعه بشكل سطحي، لافتقاره إلى المعارف الكافية.

عادة ما نقع على مؤلفين أشبه بخطباء مُبّجلين ودنيويين، فنستمتع بأوجزهم قولاً، وأروعهم عملاً، من دون إرهاق المستمعين. الإنسان الذي يتكلم أو يكتب ما يفيض عما يريد، تراه دائماً مبعثاً للضجر؛ فينفد صبرنا، ونتركُ الخطيب فوق منبره، أو المؤلف خلف طاولته، تماماً كما نتخلص من مُزعجٍ صادفناه.

قليل من الناس يتصفون بطبع من لا يحب سوى الكِبر والطول: مساكن كبيرة، وحزم كثيرة، كتب كبيرة، وخطابات طويلة، إلخ. كان يمكن لهؤلاء أن يحبّوا تومان رافتباخ Th. Rafetbach، رجل الدين البافاري الذي شرع بوضع دراسة حول النبي اسحق Isaé وتعليمه للناس في فيينا. فأنفق اثنتين وعشرين سنة، ولم يكمل سوى الفصل الأول، وبقي الكتاب ناقصاً بعد موته.

من حسن الحظ، أن قلّة من الناس وهبهم الله القدرة على طول المصابرة، لكن العديد من الكتاب يفرطون في الكتابة: فطريقة كتابتهم مُبهمة، وكتبهم تعجّ بالمبالغة في الأشياء الغثة والسمينة، وهو ما يسبب امتلاء المكتبات، بدورها، بهذا الخليط المُتعب والذي لا طائل منه.

٣- الكتابة من دون التقيد بالحدود المفروضة على العقل البشري، في كل المواد التي منعتنا العناية الإلهية عن معرفتها.

يقول الحكيم (سفر الجامعة ١٢) لن يقف تأليف الكتب العديدة عند حد. فقد ترك الله العلماء يتنازعون العالم، لكن أيّاً منهم عجز عن النفوذ إلى أسرار حكمته من خلال ظروفه، لأنه رفض أن يكشف عنها أمامهم.ما أكثر المنظومات الفيزيائية الهادفة إلى زعزعة الدين! خذوا خبرَ ما يعلمه لنا صوت الطبيعة؛ إنها تفسّر لنا، بنفسها، الغوامض الأساسية للطبيعة. إنها تقوم به حينما تُظهر لنا السماء والأرض، والمخلوقات الأخرى، وتعلمنا بأننا جميعاً مثلها صنائع القدير من دون أن تبعث بنا إلى مدارس حكمائها أو إلى مفسريها الجدد. إنها تجعلنا نقرأ الكلمات الأولى من وصية الخالق المكتوبة فوق الشمس والنجوم: في البدء خلق الله السموات والأرض؛ في البدء عمل الله الذي كان موجوداً على خلق ما ليس له وجود بعد.

مهما تكن صفاتنا، ومهما منعنا كبرياؤنا، أو إهمالنا، أو تعددت مشاغلنا، علينا ألا نعفي أنفسنا من دراسة هذه الفلسفة. فلا شيء أشرف من معرفتها، والتمكن من الحديث عنها بما يليق بها، وليس ثمة ما هو أسهل من تعلمّها. فكل ما ترومه منا، هو أن نفتح عيوننا، في ساعات فراغنا، ونشرع في قراءة العالم: اعلم يا بنيّ أني لا أطلب منك سوى نعمة واحدة، هي أن تتأمل السماء والأرض وتدع الأنوار المنبعثة منهما تدخل إلى روحك، فهي تُدخل معها المعرفة، والتقوى والتواضع. إن قوام الفلسفة الحقيقية هو أن يجدد المرءُ تأملاته عبر أفعال تنمّ عن الحب الإلهي، وإنماء القداسة. أما قوام الفلسفة المزيّفة والفاسدة، فهو أن يجدد المرء صفاته بإنماء الشبهة، وجعل

الفيلسوف أكثر عماءً، وبهاءً مما كان عليه حاله قبل دراساته: فهو إن أراد معرفةَ جوهر كل شيء، فمآله التيه والضياع.

ثمة فارقان بين هاتين الفلسفتين المتضادتين جداً. الأولى تُعنى بتأمل ما يبيّنه الله من صنائعه واستحسانها، والثانية تتجه إلى رؤية ما لا يريد الله أن يبيّنه لنا، وينبغي أن يظل مستوراً أمام أعيننا. لقد أخفت الحكمةُ الإلهية في ما صنعته، بعض الأسرار التي لا يقدر الواحد منا على معرفتها. ويسعى بعض فلاسفةَ المدرسة الثانية إلى معرفتها. وشاءت إرادة الله أن تتيح لهم أمر الشروع في ذلك لمعاقبتهم، بإنفاق حياتهم بحثاً في متاهة مدلهمة عمّا لا يمكنهم العثور عليه أبداً.

فهم يبحثون عنه فعلاً.. وسيفضي كل ما بذلوه من جهدٍ في دراساتهم آناء الليل وأطراف النهار، ببصرهم إلى وسط الكائنات، وأعماق الجواهر، والتعرف على هذه الأسرار الغامضة التي أخفاها الخالق في أعماق تلك الظلمات السرمدية. المصيبة أنهم يريدون القول، ويريدون أن يعرف الكون رأيهم في ما يقولون: كلهم يطمحون إلى الفوز بشرف أنهم أفضل من كشف وعرف، رغماً عن الله، وعن أسباب فعله، وغوامض عنايته الإلهية. وهنا نشأت المنظومات التي خُيّلت لهم وتتابعت من بعدهم.

لقد تلفظ سليمان، وهو ينظر إليهم، بكلمته المأثورة: سلمَ العالم إليهم لينظروا فيه Mundum Tradidit dispotationi earum – إنه يسمح لهؤلاء العلماء المُكابرين، منذ ثلاثة أو أربعة آلاف عام، على سبيل المثال، بفهم قابلية القسمة التي خبأها في رأس إبرة، أو ما هو المحرك الذي يقف وراء حركة الشمس، أو المحيط خلال اضطراباته الدائمة. كل هذا، كما

يقول سليمان، وأعمال الطامحين، واهتمامات المقتصدين، ما هو إلا باطل الأباطيل، ومرض الناس المتشبثين المكابرين بخضوعهم إلى أحلام خيالاتهم، وقضاء حياتهم في إقناع الآخرين، بأنهم فكّروا في الحقيقة.

ما أجمل قول القديس أغسطينوس بأن جماعة فيثاغورس وطائفة ديمقريطس تبذلان جهدهما بشكل أعمى في مكاتبهما لتشكيل أحلامهما وجنونهما، ثم يأتون بعد ذلك إلى مجالسهم ليقولوا لبعضهم أثناء منازعاتهم بكثير من الحكمة، إنهم مجانين.

حينما تنتاب بعض الشكوك نفوس الجاحدين إزاء غوامض الدين، يبدأون بطرحها على أنفسهم، فيُسائلون عقلهم سراً، ويطلبون كيف عرفَ أن العالم مصنوع من خالق، وأن بعد الموت ثمة حساب وجحيم وأبدية، إلخ.

إن الأسئلة الكبرى التي تطرحها فلسفة اليوم، ليست بعيدة أبداً عن الأسئلة الكبرى، لأن، من خلالها، سرعان ما نتعلم كيف نصبح سادة في الزندقة، ونتجاسر على قلوبنا، وتلامذتنا، ونضعهم أمام شكوك فاضحة حول الحقائق الأبدية. المانوي manéchiem الذي يسأل صديقه عما إذا كان الله هو من خلق الذباب الصغير، لا يتورع عن سؤاله عما إذا كان الله هو خالق الناس. والأمير الذي يسأل فلاسفة بلاطه عما إذا كانت العصافير حيّة، سرعان ما سيسأل نفسه عما إذا كانت الملائكة كذلك، وعما إذا كانت هناك ثمة أرواح خالدة.

هناك من العلوم ما يشبه الكلمات. أخطرها أكثرها عفّة وتواضعاً. حينما تنخفي وراء حكمتها وتواضعها، تراها الأكثر بعثاً للفساد في القلب، فتسمعه بأنه قادر على التفكير بأشياء لا يسعُ العارف قولها.

لننفض عنا فضول معرفة الدرب الذي يودي بنا إلى التهلكة، ولنبتعد عن التشبث بأي مذهب، اللهم إلا ذلك الذي يفضي بنا إلى معرفة الله، ويكون لنا عوناً على محبته.

يقول نيكول Nicole «ما أقربنا إلى الحياة الأخرى، أي إلى حالة نتجاوز فيها حقيقة الأشياء كلها، شريطة أن نكون جديرين بملكوت الله، وأنه لا جدوى من العمل على معرفة المسائل الغريبة الخاصة باللاهوت والفلسفة».

هذا رأي بالغ الحكمة؛ لو أراد العلماء وضعه موضع التطبيق، لما قضوا أيامهم ولياليهم في دراسة موضوعات ستكون معرفتها ممنوعة دائماً على الإنسان. وسيكون الوقت الذي ينفقونه في هذه المناقشات لمصلحتهم، أكثر مما يكون لمصلحة الجمهور، لو لم ينفقوه إلا في صناعة كتب تفيد المجتمع.

٤- الكتابة في موضوعات ينبغي الامتناع عنها حينما لا تكون من مهامنا، رغم ما لدينا من مواهب.

سنتوقف هنا عند الأمور التي لها علاقة بالحكم. إن الله قد وضع الأمراء لحكم البلاد الذين وضعتهم عنايته على رأسها، ويتضمن قرار هذه العناية الإلهية أن يحترم الرعايا أشخاصهم، ويخضعوا لأوامرهم.

ولا يقل أهمية عن ذلك الحكم على الطريقة التي تدير بها الدولة الشأن العام. فضلاً عن أننا غير مكلفين بإصلاح سلوك أولئك الذين يحكموننا، لأننا ولدنا لكي نُحكَم، فإن واجبنا يقتضي اتباع الانطباع العام. من يمسك بزمام الحكم يؤمن أن من واجبه الاهتمام بمصلحة كلٍ من الأطراف المكوِّنة للدولة التي تخضع له. إنه المركز الذي تعود إليه حاجات الجميع: أشعة الدائرة كلّها تفضي إلى هذا المركز، فيحرّك كل شيء من أجل الخير العام والخاص لرعاياه.

إذا لم تكن الأمور كذلك، فلن تغير هذه الحالة العنيفة شيئاً في موقفنا. إنه ثابت في قوانين العناية الإلهية، وكل ما نستطيع أن نسمح لأنفسنا بالاعتقاد به، هو أنه من شأن أوامر هذه العناية الإلهية أننا قد حُكمنا بطريقة مخالفة للعدالة. فلا بدَّ من الصمت عندئذٍ والتقيد بأغوار أوامرها.

هناك حدود لا يسمح الله بأن نكون شهوداً عليها في مملكة يشكل قانونها قاعدة لنا، وحيث روح الحكمة تتجلى في مكاننا، يصعب التفكير بأن كل ما يحدث، وكل ما يُرتب، يجمع لصالحه أصوات الناس، لو كان مسموحاً للجميع التعبير عن آرائهم.

يقوم سلوك البشر في أحكامهم على محركين كبيرين هما: الهوى والعقل. العقل الذي لا ينطوي إلا على نقطة واحدة، هي المعرفة الحقيقة للأشياء كما هي، والتي تجعلنا نحكم عليها بشكل سليم، ونحبها أو نكرهها، نستحسنها أو نرفضها، تبعاً لما تستحق. أما الهوى فهو انطباع خاطئ بأننا نكوّن لأنفسنا أشياء من خلال تصورها على غير حقيقتها: أكبر أو أصغر، أكثر فائدة، أو أكثر إزعاجاً، أكثر عدلاً، أو أقل إنصافاً مما هي عليه فعلياً. وهو ما يُلزمنا بعدة أحكام خاطئة، ويترك فينا، حول هذه الأشياء، مشاعر تخالف الصواب. إذا أضفنا إلى ما نسميه هنا هوى، الآثار التي تتركها فينا الظِنَّةُ التي قد تكون استكمالاً له (الهوى)، والتي قد تكون لها عدة مصادر مختلفة، تتنوع الأهواء التي قد تختلج لها قلوبنا. فكم هو نادرٌ عدد الأشخاص القادرين على إصدار حكمٍ متجانس وسليم على سلوك من يحكموننا، واستبعاد الانطباعات التي تنتابهم، جراء الهوى أو الظِنَّة، من أحكامهم؟

بطبيعة الحال، ينبغي ألا تحتمل الأحكام التي نُصدرها على الأشياء التي لا علاقة لها بالحكومة، كثيراً من الارتباكات، والتي لا تمس سوى بأفعال المجتمع، وأحداثه العادية بين الناس، وبالعلوم والفنون، وما إلى ذلك.

هذه الموضوعات ليست مسرحاً للأهواء والمصالح الكبرى، ومع ذلك نرى تقاسماً في المشاعر حول أقلّ هذه الأحداث شأناً. غالباً ما يؤدي تنوع الآراء هذا إلى انقسامات في العائلات، وتباعدٍ بين الأصدقاء، بل إلى تحركات في هيئات الدولة.

إذاً، إذا صدرت أحكام مختلفة حول هذه الأمور الصغيرة جداً من الناس، فإن هذه الموضوعات تؤدي بطبيعتها إلى التنازع في ما بينهم؛ وإنه لا بدَّ من فضيلة عظيمة تلزمهم بالامتناع عن إظهار مشاعرهم، ما إن يتمكنوا من إدراك ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج مؤسفة. إذا كانت هذه الأحكام المختلفة تحمل معها نتائج ضارة، أفلا ينبغي أن نخشى كذلك عواقب ما يترتب على حكمنا بخصوص شؤون الدولة؟

الهوى والظِنّة اللذان يهيمنان على أكبر قسم من الناس، قد يهيمنان أيضاً على أحكام عدد أكبر ويوجهانها. لكن في مثل هذا الموضوع، يمكن لأعظم الأهواء أن تتسبب بأعظم الاضطرابات. وما هي الوسائل التي يملكها العقلاء من الناس الذين لا يقود أحكامهم حتماً سوى العقل، لإعادة الجمهور إلى جادة الصواب؟ لقد سبق وقلنا إن العقل يعني المعرفة الحقيقية للأشياء كما هي عليه. فهل يمكن لهؤلاء الناس من العقلاء أن يملكوا غالباً تلك المعرفة الحقيقية بالأشياء، وأن يصمدوا في وجه هذا السيل الجارف استناداً إلى تلك المعرفة؟ في إمبراطورية واسعة ثمة عدد غير محدود من

العمليات التي لا يُعرف أساسها، وتعدُّ جزءاً من أسرار الدولة. قد يكون هذا الأساس الذي يعرفه الناس العقلاء، وغير العقلاء بداهةً في الأذهان، ومن شأنه تصحيح أحكام الضالين، لكن هناك أسباباً أهم تكمن وراء كتمان هذا الأساس. وتبقى العملية تحت رحمة أهواء الناس وأحكامهم إذا أجاز المرء لنفسه تناول هذا الموضوع، من شأنها، بتنوعها وبما ينجم عنها من مرارة واستياء، التسبب للدولة بارتجاجاتٍ قد تسيء إلى السلامة والهدوء العامين.

يبدو النظر إلى مثل هذه الأضرار كافياً لتغيير اتجاه حتى الأشخاص الذين لا يتصرفون عادة بما يمليه عليهم العقل، نحو الامتناع عن إصدار أحكامهم حول مثل هذه الأمور. نادراً ما تسيء الظِّنة والهوى إلى عقول الناس إلى حد إغماض أعينهم عن مصالحهم. بهذا الاعتبار وحده نريد هنا ردعهم عن التعبير عن آرائهم حول أشياء، لا يمكن لأعقل الأشخاص أن يكونوا قادرين على الحكم على أنفسهم، بسبب نقص المعرفة الحقيقية بحالة هذه الأشياء نفسها التي يتعرضون، من دونها، إلى حتمية خطر الضلال في أحكامهم.

وحسب قول المؤلف، يبدو أن الكتاب لا يكون جيداً إلا إذا تضمن هجاء كرام القوم. حتى الكتب الفلسفية تخضع لرغبتنا في اللوم والنقد. وليس مسموحاً أبداً للرعايا الكتابة ضد الحكومة: فإذا كانت لديهم معرفة ودراية بهذا الموضوع، عليهم أن يقدموا ملاحظاتهم سراً إلى الوزراء، وألا يجاهروا أبداً بالقدح والصخب، ما يفضي إلى البلبلة وتهييج العقول.

إن الاندفاع نحو صناعة مُنتجٍ جديد ما هو إلا حماقة، فإذا حبَسَ كل منا نفسه في مجاله، فإن الكاتب الذي لا شخصية له أو سلطة، لن يتجرأ على

تصحيح سلوك الأمراء والوزراء. يقول أحد الأكاديميين «الرؤوس الفرنسية متقلبة»، وهو أفضل رد على من يأخذون علينا شططنا.

لا يملك صانعو المشاريع كلهم القدرة على إدارة الأمور، ولا يدركون الصعوبات. عليك أن تكون في مكاتب الأمراء، لترى المركز الذي تلتقي الأشياء كلها فيه، لكي يكون حكمك موضوعياً. فلا القلم والورقة يمكنّانا من رسم أجمل مخططات الإصلاح؛ ولا شيء يقف في وجهنا، حينما نكتب في شأنٍ يخصنا؛ حيث نختصر، ونقطع كما يحلو لنا. حينما لا يتعلق الأمر إلا بالأفكار، يظن الواحد منا نفسه مُشرِّعاً. وإني لأصغي إلى وزراء مخضرمين في وظائفهم، ورجال قانون يعرفون الناس والقوانين. لقد تأهلوا للكلام، لأنهم متعلمون، لكن شخصاً فرداً أو عالماً ليس سوى عالم، وفيلسوفاً ليس سوى فيلسوف، لا علاقة لحياته بشؤون الدولة، يقف بين الصفوف ويقدم مشاريع وخططاً تشريعية وإدارية، لا يكون، في أغلب الأحوال، سوى كاتب تدغدغه أحلام جميلة، ويعبر عنها بشكل جميل.

الفصل الثالث
نحن مُقلّون جداً في الكتابة

يُعدُّ الكسل، وحذر الإنسان من قواه الخاصة، والتواضع، والاحتراس، أسباباً لهذا الشر الذي غالباً، ما يحرم الجمهور من عدد من المؤلفات المفيدة واللافتة للنظر.

لا أدري لِمَ قُدّرَ للأدب أن يجد دائماً رجالاً كسولين وعلماء في الوقت نفسه. وكأنَّ هذه المثلبة جزءٌ من شخصية الإنسان الروحاني، أو على الأقل، لا تنفصل عنه تقريباً. نبحث في الطبيعة أحياناً عن أسباب مهارات الأعضاء، وغزارة الأنوار، والصعوبة التي يعانيها أصحاب النوايا الحسنة من الاكتفاء، فنرى، في أغلب الأحيان، أنها ذرائع سخيفة ينبغي إهمالها. كم لدينا من الكتب الرائعة، وضعها أناسٌ روحانيون، وماهرون، تنطوي على العلم، قياساً بتلك التي أُوجّه اللوم إليها! ستجدون منها الصادقة التي تعترفُ، من دون مواربة، بأن متعة الخمول تبدو لهم أفضل من متعة تأليف الكتاب.

إن حذر الإنسان من قواه الخاصة، يجعل البعض يقبعون في الصمت، وهم لا يعرفون كل ما يمكنهم القيام به. وينشر الخجل فوق ذهنهم غطاءً بضايقهم، ويخفي عنهم جزءاً من أنوارهم، ويحجب عنهم كل ما من شأنه دفع الآخرين إلى العمل، غير واثقين من أنفسهم، ومتقلبين، مستعدين دائماً لعدم استكمال ما بدؤوه. وهم يختلفون كثيراً عن أولئك الكتّاب الجسورين، المعتدّين بأنفسهم، والذين يشرعون في عملهم ثم يستكملونه من دون أن يتوقف قلمهم عن الكتابة.

الحذر والتواضع أمران محمودان جداً. لكن ثمة علماء يعرفون ما لديهم من قدرات مشهود لهم بها، ويسيئون إلى العلوم من خلال صمتهم الخجول. الحقيقة إنهم أقلُّ ممن نلاحظ عندهم توجهاً مغايراً. وقد يكون من المفيد أن يعوّضوا ما ينقصهم من فائض لدى الطرف الآخر.

ترى، إلامَ كان يمكن أن يؤول الأدب لو اتبع هؤلاء المؤلفون البارعون في كتابة المقَّدس والمدنّس، الأقوال المأثورة التي وضعها أولئك الذين يمتنعون عن الكتابة اليوم، وهم يتمتعون بالموهبة نفسها؟ المرتد الشهير، الإمبراطور جوليان، الذي كان يمنع المسيحيين من القراءة واقتناء الكتب، كان يعرف ما يخشاه منها. لا بدَّ من مرشدين لإنارة العقول. أين نبحث عنهم إن لم يكن بين العلماء؟

مرت أوقات كان التحفظ الواضح نوعاً من الجريمة، لا سيما إذا كانت له علاقة بخيرات الله والدين.

يمكن أن نضيف أفكاراً أخرى إلى هذه النقطة، والأخطاء التي يقترفها المؤلفون في كتاباتهم السيئة، أو الإفراط فيها، أو التقليل منها. لكن أتى حينٌ بدأ الحديث فيه عن العلاجات التي يمكن تطبيقها عليها.

يجب ألا تغيب عن ناظرنا المبادئ الصلبة التي أتينا على ذكرها في بداية هذه الدراسة، لنتعلم كيف نتحكم بألسنتنا، وهي مبادئ لازمة أيضاً لضبط استخدام القلم. لن أقوم هنا إلا باستبدال مصطلحي الكلام والصمت بآخرين هما الكتابة وعدم الكتابة، أو التحكم بالقلم.

الفصل الرابع
مبادئ ضرورية
للتعبير بالمقالات أو بالكتب

المبدأ الأول. علينا ألا نكفَّ أبداً عن الكتابة، إذا كان ما نريد كتابته أفضل من الصمت.

نقول في هذا المبدأ، إن كل ما في الكتاب الضارّين، وما لدى الآخرين من فائض، كما سبق تفصيله، ينبغي أن يكون موضوعاً عادياً لأكثر أفكارهم جدية.

كم من المفيد للكتاب، من أصحاب الكتب السيئة، أن يسقط القلم من بين أصابعهم قبل أن يسكبوا فوق الورق هذا الكم من الهجاء الدنيء، والغراميات الإجرامية، والأخطاء بحق الإيمان؟

لا شك أن الصمت أفضل من نشر هذه الفوضى. في الصمت إذاً مصلحة للدين والسياسة السليمة، وعليهما أن تفرضاه على الكتّاب بالوسائل الفاعلة. وعلى المجتمع أن يعزلهم كما يعزل الإنسان المصاب بمرض سارٍ، حفاظاً على سلامة هذا المجتمع نفسه. العدالة تضرب بسيفها كل من يبعث الاضطراب في النظام المدني، ويسلب الآخرين ما يملكون. وهل يقلُّ ذنبُ الكاتب المجدّفُ بحق الله في كتاباته، والمتطاول على الدين والمُسد للأخلاق، عن ذنوب أولئك؟ فكيف نعاقب من يهين أميراً، ولا نعاقب من يهاجم الله!. إننا نغض الطرف عن تلك الكتابات الزنديقة، وتلك الكتابات، والمقالات التي تسخر من الحياء، وتهينه، حيث لا يحمر إلا وجه المسيحي،

والمواطن، والإنسان الفاضل. إن مثل هذا التسامح إزاء تدمير أسس الدين وقواعد الأخلاق، من شأنه أن يقطع أقدس الروابط التي تصل التابع بحاكمه، وتتجاوز كل تمييز، وكل ولاء، وكل وحدة في المجتمع؛ ما الذي سيكون عليه مصير أمةٍ تنظر إلى مثل هؤلاء الكتاب بوصفهم معجزات العصر؟ أكرر قولي، إن الدين والسياسة طبعاً، لهما المصلحة نفسها في التكاتف لمنع هذه العدوى المشؤومة من الوصول إلى الكنيسة والدولة. وليس في كلامي على هذا النحو سوى تكرار لآراء أحد الشارعين الذي اقتبست من مرافعته التي تعود إلى تاريخ ٢٣ كانون الثاني من عام ١٧٥٩.

يقول: «ألا تتطلبُ مثل هذه المبالغات أكبر قدر من العلاج؟ ألا ينبغي على العدالة أن تُظهر كل ما فيها من قسوة، وتمتشق حسامها لتضرب على أيدي مخترقي المقدسات، والعُصاة الذين يدينهم الدين، ويرفضهم الوطن، من دون تمييز؟ هؤلاء الناس الذين يستغلون اسم الفلسفة، ويعلنون، من خلال منظوماتهم، عداءهم للمجتمع والدولة والدين، هم لا شك كتاب يستحقون أن تمارس البلاد بحقهم كل قسوة القوة التي يمنحها لهم الأمير، وقد تقتضي مصلحة الكنيسة، في بعض الأحيان، ارتباط القضاة كلهم بعقيدتها وأخلاقها. إن سابقيكم، أيها السادة، قد حكموا بمعاقبة الأشرار بوصفهم مجرمين نالوا من الذات الإلهية، كتابٌ وضعوا أشعاراً تسيء إلى عزة الله وكنيسته، وإلى الكرامة العامة؛ وقد أعلنوا أن من يتم القبض عليهم بهذا الجرم يخضعون لما يُعاقب عليه المتهمون بذلك، ويقبض على الإباحيين بأمر من السلطة القضائية ويلاحقون بموجب القوانين» (قرار صادر بتاريخ ١٩ آب ١٦٢٣ ضد تيوفيل بيرتوليه، إلخ).

وبأمر من المجلس الخاص للملك لويس الثامن، ألغيت مؤلفات غيّوم دو سانت - آمور Guillaume de saint - Amour، ومنع دور الطباعة، والمكتبات من طباعتها، وعرضها للبيع والحديث عنها وألا يُبرم مع جميع الآخرين منهم أي عقد، ويدفعوا غرامة مقدارها ثلاثة آلاف جنيه.

بالفعل، كيف يسمح هؤلاء المسمّمون لأنفسهم، بالمجاهرة في الاعتداء على حياة المواطنين ؟ ولماذا يراد أن يكون الدين والأخلاق موضوعاً أقل قيمة من حياة الجسد بنظر الحكام الذين يحبون الدين؟ يقول مطران باريس في قراره الرعوي الصادر بتاريخ ٢٤ كانون الثاني من عام ١٧٦٨ «إذا كانت كنيسة يسوع المسيح محزونة بسبب فضائح الجحود، وإذا كانت السلطة الروحية عاجزة عن الوقوف في وجه تزايدها، أليس من الإنصاف أن يهب الأمير لنجدتها، فيشيع الرعب في نفوس المذنبين بالسيف الذي لم يتقلده من دون سبب، بعد أن أوكله الله إليه كما أوكل وزيراً للانتقام؟

طالما نظر الأمراء الكاثوليك إلى الخطيئة بوصفها أحد الشرور التي ينبغي وضع حدٍ لها بالخشية من العقاب، وحتى بالعقاب إن ركب الخاطئ رأسه. يقول بوسييه Bossuet: «يحق للأمراء المسيحيين استخدام قوة السلاح في وجه الرعايا المعادين للكنيسة، والعقيدة المقدسة. وهذا شيء لا نستطيع الشك فيه، من دون إغضاب السلطة السياسية. لا أعرف من المسيحيين سوى الناكرين للثالوث والقائلين بإعادة التعميد، ممن يقفون ضد هذا المذهب. الحق لا شك فيه، لكن الاعتدال لا يقل عنه ضرورة (الكتاب ١٠ رقم ٥٦ من تاريخ التغيرات).أولئك الذين لا يقبلون بوجوب حرية الدين، يقعون في خطيئة كافرة» (سياسة مأخوذة عن الكتابة

المقدسة، 7, art.3) وبحسب القس فلوري Fleury، لا ينبغي القول إن الأمير لا يملك حق الوصاية على الآراء والناس. بل يحق له، على الأقل، منع ظهور الآراء السيئة، وعدم السماح بالكلام ضد عزة الله، ومبادئ الكنيسة، ولابدَّ من احترام الأمير، وأحكام الدولة والأخلاق القويمة (التاريخ الكهنوتي. ص316). ويتساءل القديس أغسطينوس، «كيف يمكن للأمراء خدمة الرب، إلا بمنع من يخالف أوامره ومعاقبته حتى باستخدام القسوة الدينية؟».

الكنيسة، في حقيقة الأمر، أم حنون ورحيمة، لا تطلب موت الخاطئ، بل ترغب بأن يعيش ليهتدي. إنه هدف أعمالها؛ إنه هدف دموعها، وصلواتها. لكن لتساهلها حدوداً. من دون ذلك، سيوغل الناس في التجديف من دون خوف كما فعل ميشيل سيرفيه servet (١٥١١-١٥٥٣)، بحسب ما ذكره بوسويه Bossuet، وإنكار ألوهية يسوع المسيح؛ وتفضيل مذهب المسلمين Mahométants على مذهب المسيحيين. يقال عن البلد الذي تكمنُ فيه الهرطقة، بأنه سعيد سعادة الأرثوذكسي، وهو أشبه بمن يحتفظ كما يحتفظ باليمام، ويتمتع من يركبّ السموم بالهدوء نفسه الذي يعيشه من يحضّر الأدوية. يُثقبُ لسان من يجدفون بعصبية، لكن لا يمسُّ أولئك الذين يفعلون ذلك عبر الأقوال المأثورة والمعتقد، حسناً! من هي الأمة التي تمنح هذه الميزة إلى المجدّف، وتتعامل مع الزندقة بهدوء، و ترفع رايتها بين الناس؟ حينما نتجرأ على رفع الصوت في وجه الله، فلن نتعرّف على من هم بصورته فوق الأرض. وأكبر مثال مؤسف عليهم أولئك الفلاسفة: فهم لم يتورعوا عن مهاجمة الألوهية والحكومة، وبرهنوا

لقادة الأرض، عبر كتاباتهم التحريضيّة، على أن عداوتهم لله لا تقل شأناً عن عداوتهم للملوك.

المبدأ الثاني: ثمة وقت للكتابة، وآخر للامتناع عنها.

ليس من الإنصاف وجود من يكرر القول بأن الرجل العاقل يكتب. لكن هناك ثمة وقتاً للكتابة.

١- حينما نتمتع بما يكفي من مخزون كاف من العقيدة، ، ويكون الذهن متمكناً من موضوعه، ونكون على معرفة جيدة قبل الشروع بتعليم الآخرين، قد نضحك من إنسان يسافر في رحلة بحرية طويلة من دون أي وادة معرفيه. المؤلف الذي يفتقر إلى كل شيء، ويشرع في معالجة موضوع معيّن، يكون مدعاة للضحك.

٢- لا بدَّ من الكتابة، حينما تكون النفس في حالة تسمح لها بذلك. فالاضطراب والغضب، والقلق والحزن، والانفعالات الباردة أو الحارة، تجمّد الذهن، أو تشطّ به. لهذا هناك كثير من الكتب الباهتة، أو المفرطة في الهجاء، أما الكتاب المُتقَن، فهو شأن من يمسك بزمام نفسه تماماً.

٣- إن التعرض بالدين والدولة والشرف، أو بأي مصلحة كبرى، يشكل فرصة للكتابة، لأن القوانين الإلهية والوضعيّة تسمح بذلك، بل تأمر به، لكن أولئك الذين يملكون مواهب تخص الدفاع عنهم، والمالكين للمعارف اللازمة، ومن لا يملكون سوى إرادة طيبة وحماسة، من دون معارف، عليهم أن يتواضعوا وألا يَضَعوا أنفسهم في مرتبة الكتاب.

المبدأ الثالث. زمن الكتابة لا يحتل دائماً المرتبة الأولى، ولا نعرفُ أبداً كيف نكتب بطريقة جيدة، إن لم نعرف مسبقاً، كيف نمتنع عن الكتابة.

يعدُّ هذا المبدأ استكمالاً طبيعياً للأول. ففي زمن الصمت والدراسة، ينبغي على المرء أن يحضّر نفسه للكتابة، إذ هناك كتب غير ناضجة كالفواكه. فلم هذه العجلة القوية؟ لماذا تتعجلون مدفوعين برغبة أن تكونوا كتاباً؟ انتظروا، ستتمكنون من الكتابة حينما تكونوا قد تعلمتم الصمت وحسن التفكير.

المبدأ الرابع. ليس في حَبْسِ القلم ضعفاً أو قلةَ حذر. حينما نكون مضطرين للكتابة، وحينما تكون ثمة خفة، وعدم تحفُّظ في ممارستها، عندها لابدَّ من الامتناع عنها.

ينبغي تطبيق هذا القول المأثور في المناسبات الهامة. فإذا أضعتَ هذه الفُرص، سيترتب على صمتك وهدوئك تبعات غير حميدة ينتصر العدو، ويتلطخ الشرف، والدولة والدين؛ لكن كن متنبهاً إلى حسن التمييز بين هذه الظروف العظيمة التي ينبغي الكتابة فيها من تلك التي لا تستحق أن يكتب فيها، والتزم الحيطة. هذا التمييز هو نتاج حكم سليم وتجربة حكيمة. والمؤلف يحتاج أكثر من غيره إلى النصيحة والأصدقاء المخلصين.

المبدأ الخامس. لا شك أن النظر إلى الأشياء، بشكل عام، أقل خطراً من الامتناع عن الكتابة.

أقول، النظر إلى الأشياء بشكل عام، لأن هناك ثمة مناسبات خاصة ينبغي استثناؤها، كما قلت للتو. إذ ما الخطر الذي يترتب علينا إن امتنعنا عن الكتابة؟ إننا نحقق بعض الرضا بالكتابة، وشيئاً من الشهرة العابرة التي نعرضها أمام نزوة القارئ؛ وإشغال أنفسنا خلال لحظات لطيفة من الوقت. كما ينبغي أن تكتب بنجاح حتى لا تخاطر بخسارة هذه الميزات. من دون ذلك، سيعاني المؤلفون من الحزن والاحتقار.

يُسأل الحكيم القادر على الكتابة، متى إذاً يتخذ قرار تحرير الكتاب؟ يجيب: «حينما أضجر من القيام بأي شيء آخر، ولا يبقى شيء آخر أقوم به». أترك للكُتّابِ المُتعجلين إدراك ما تعنيه هذه الإجابة.

المبدأ السادس. لا يملك الإنسان نفسه أبداً إلا في المثابرة على الامتناع عن الكتابة. من دون هذه الحيطة، تراه يكثر منها، ويفيض خارج نفسه، فيصبح ملكاً للآخرين، أكثر من امتلاكه لنفسه.

يعدُّ العلماء من الكتّاب هذا الرأي أكثر الآراء أهمية. لا شيء يساوي في ضرورته ضرورة السيطرة على الذات، وعدم المبالغة في استعراض نفسه أمام الجمهور. الكتابةُ تقتضي التحلّي بدمٍ بارد وذهنٍ حاضر، نفقدهما إن تسرّعنا كثيراً، فالجمهور يكشف عن ألف شيء فاتن كان ينبغي التحفظ عليه. هناك مؤلف فشل في الأقسام الأخيرة من أعماله، بعد أن أستحق الثناء على الأقسام الأولى، وكان مسروراً منها، لكنه حاد عن الطريق حينما أراد الاستفاضة في موضوعه، فضاع.

المبدأ السابع. حينما نكون أمام شيءٍ هام نريد كتابته، علينا أن نوليه اهتماماً خاصاً، ونفكر فيه في أغلب الأحيان. بعد هذا التفكير، عليه أن يفكر فيه مرة أخرى، لأننا حينما لا نسيطر على ما نكتبه، لا يعود الندم مفيداً بعد ذلك.

قيل منذ زمن بعيد: «ما كُتب يبقى مكتوباً». الكلمات تمضي أو تخضع للتبديل والتحوير، والتليين. لكن الكتابة لا تعاني أبداً مثل هذه المشاحنات. تبقى الألفاظ الشائنة في الكتاب دائماً شتيمة. والعبارة غير اللائقة أمرٌ شائن. والمذهب الخاطئ، في المكتوب، يدل على مؤلف خطير لاستخدامه معاني

مواربة تخفي خبثَ نواياه. لذلك ينبغي أن يكون الانتباه في أقصى درجاته، للامتناع عن كتابة أي شيء لم يُعمل كاتبه فكره فيه بحكمة.

المرء سيد التفكير، لكنه لا يعود كذلك بعد كتابة الأفكار وتركها بين يدي القارئ.

المبدأ الثامن. إذا كان الأمر يتعلق بسرٍ معين، فلا ينبغي كتابته على الإطلاق؛ والتحفظ في هذا الموضوع لا يبعث على الإفراط في الخوف.

يكفي أن نعرف طبيعة السر، حتى نحكم على خلو هذا القول المأثور من أي مبالغة. إذ إن من نفضي إليه بالسر لا يخفيه إلا لماماً، فما بالك حين نُفشيه في كتاب؟

المبدأ التاسع. التحفظ اللازم للامتناع عن الكتابة لا يقل براعة في كتابته والاهتمام بها. وليس هناك أكبر من ميزةِ شرحِ ما تعرفه إلا السكوت عما نجهل.

ليس هناك أسهل، ظاهرياً، من الكف عن التصرف؛ أما الفعل فمجلبة للصعوبات والإحراجات. أعترف إذاً، بأن جودة الكتابة مشروع يفوق في صعوبته عدم كتابة أي شيء. لكن عدم كتابة أي شيء، وحبس القلم من باب الحكمة، والتحفظ، والحيطة، يعدُّ عنفاً من المؤلفين. هذا الميل يحمِلهم على الكتابة؛ وهو ثقلٌ يجرّونه خلفهم. إذاً، فالكاتب يربحُ نفسه إن ابتعد عن هذا الميل، وضحى بكبريائه في سبيل الحذر.

أضيف أن ميزة الصمتُ عما نجهل أكبر من ميزة شرح ما نعرف، لأن الأول طبيعي؛ نتكلم ونكتب طوعاً حول ما نعرف، لذلك فهي مزية عامة. الآخر أكثر نُدرة: فنحنُ لا نحب التحفظ الذي قد يظنه الآخرون جهلاً؛

أحياناً نكتب ما نعرف، وما لا نعرف جيداً بحدسٍ متساوٍ، لنبدو بارعين. إذاً، فالسكوت على ما نجهل مزية.

المبدأ العاشر. التحفظ في الكتابة يعادلُ الحكمة عند الأحمق، والقدرة عند الجاهل.

الجاهل الذي يعرف متى يضع حداً لنفسه، تراهُ مقلاً في الكتابة، أو لا يكتب أبداً، وهذا أفضل. فيحظى بسمعةٍ طيّبة لا يستحقها، ويدمّرها إن زاد في الكتابة. «يقال إنه عاقل، يتمتع بحس سليم، مُكثرٌ في التفكير، مُقلٌ في الشرح». و يقال: يظنُّ كثيرون، على الأقل أولئك الذين لا يعرفون عن الرجل سوى تحفظه، أن الجانب الذي يميل إليه هو الأفضل كما في القول المأثور الذي يتضمنه المبدأ الآتي.

المبدأ الحادي عشر: إذا حُملنا على الاعتقاد بأن الإنسان الذي لا يكتب ننقصه المواهب، والآخر الذي يُغرِق الجمهور بالكتابات مجنون، حبّذا لو يُقال أيضاً إنه يفتقر إلى المواهب لأنه لا يكتب، من أن يقال إنه مجنون وهو مستسلم لكثرة الكتابة.

سمعة الجنون قبيحة. ليس هناك سوى من يجعلون منها مهنة مُضحكة، أو أولئك الذين لا يعرفون أنهم مجانين، ومع هذا يتأملون الأمر. سمعة الإنسان صاحب المواهب المتواضعة أكثر ارتياحاً، ولا نتوقع أن يقدم لنا عقله أي شيء. ونكون ممتنين لأي شيء يقدمه، مهما كان قليلاً؛ ولا نلومه إذا لم يقدّم شيئاً، وعلينا ألا ننتظر منه شيئاً[1].

---

[1] كما يقول الشاعر العربي:

المبدأ الثاني عشر. مهما كان السبب وراء الإمساك عن الكتابة، علينا الحذر دائماً من أنفسنا. ولكي نمتنع عن كتابة أي شيء، يكفي أن يملأنا الشغف لكتابته.

سبق أن قلت: على المرء أن يكون مالكاً لنفسهِ إن رام الكتابة بطريقة معقولة. لكن الإنسان لا يكون سيّد نفسه حينما يتكلم فيه الانفعال. والرغبة الزائدة في كتابة شيء معين ليست دائماً انفعالاً مذموماً، لكن ينبغي أن يكون ذلك الوقت دائماً مشبوهاً لكاتب حكيم وحريص. تُعَدُّدَ هذه العجلة دائماً، بداية الانفعال على الأقل. علينا التفكّر حول ما نريد كتابته، والطريقة التي نريد أن نكتب بها. العلاج سهل؛ إذ لا يلزم سوى العودة إلى العقل، والتفكير لتهدئة الحركة الأولى وتصحيحها.

وأضيف هنا فكرتين خاصتين، الأولى: بما أن المبادئ والأقوال المأثورة المنقولة، لتعلم حُسن استخدام القلم، تعدُّ مخزوناً ثرّاً من التعليمات، فعلى المؤلف أن يستخدم ما فيها من مفيد في مؤلفاته، لينتقد نفسه إن كان يكتب بشكل جيد، أو مُتَزيّداً في الكتابة، أو مقلٍّ فيها. وقد تقصدت ألا أتحدث عن تلك التي اعترضتني وأنا أكتبُ هذه الملاحظات؛ أو بالأحرى، ذكرتني بها كتبهم، لأن الكتّاب لا يجرؤون دائماً على الظهور. وقد يحدث أن ترى أغلب الكتب بين أيدي قراءٍ، وقد خلت من اسم أو تصريح، أو علامة، أو إشارة إلى المكان الذي كتبت فيه، من دون أن يتوقعوها، كما لو كانت نتائج جريمةٍ عَرَضها آباء مذنبون.

---

١ - العيب في الرجل المذكور مذكور، والعيبُ في الحامل المستور مستورٌ. [المترجم]

أولئك الكتّاب المجرمون وغير المعروفين، حتى أولئك الذين حذفت أسماؤهم، عليهم أن يأخذوا من تلك التعليمات ما يناسبهم، ولا يقلُّ حضّي للمقلّين في الكتابة على أداء واجباتهم بالحيطة وتوخي الحاجة.

الفكرة الثانية: كل ما عرضته في حديثي عن الكُتّاب له أهميته الخاصة بالنسبة للدين. وهو موضوعٌ ما كُتب فيه إلا ترتبت عليه تبعات. الكلمة أو اللفظة، إن ساءت صياغتها، واقتُطعت من مظانّها، أودت إلى الأخطاء، والاختلاف، والهرطقات التي لا يمكن تصحيحها إلا بجهدٍ مبذول وصعوبة لا حدّ لها. فما الذي يصيب العالم إن ملأناه بكتابات ضارة، وتغاضينا عن إبراز الكتابات النافعة؟ الأولى سمٌّ زعاف والثانية ترياق. فإن كانت الغلبة للسم، أفلا يؤدي ذلك إلى دمار الدين وفساد العالم وقد نضبت مؤنه؟ أما إذا قدّمت لهما الترياق فستصونهما.

لا شك أن عقلاء الناس والحذرين منهم، يتفقون على صحة المبادئ التي وردت في هذا الكتاب. فهل يوافق عليها فلاسفتنا المحدثون أيضاً؟ تلك هي رغبتنا الحارة خدمة لعزة الدين، وهدوء الدولة، وخير المجتمع، وصفاء الأخلاق.

انتهى الكتاب

القس رينوار

فن الصمت

لعدم قول أي شيء؟ أو فناً لعدم فعل أي شيء؟ وهل أراد أن يختتم، في كتاب فن الصمت، سلسلة طويلة من فنون التكلم، التي كانت معْلَماً من معالم البلاغة السائدة في العصر الكلاسيكي؟ أم قصدَ وضعَ حدٌ لفكرة البلاغة نفسها؟ ليس هذا على الإطلاق ما أراده، لأنَّ فن الصمت، في حقيقته، هو فن التكلّم، أي أنه فصل آخر من فصول البلاغة.

ISBN 978-9933-38-107-3
9 789933 381073

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع